

إليزابيت رودينسكو
Élisabeth Roudinesco

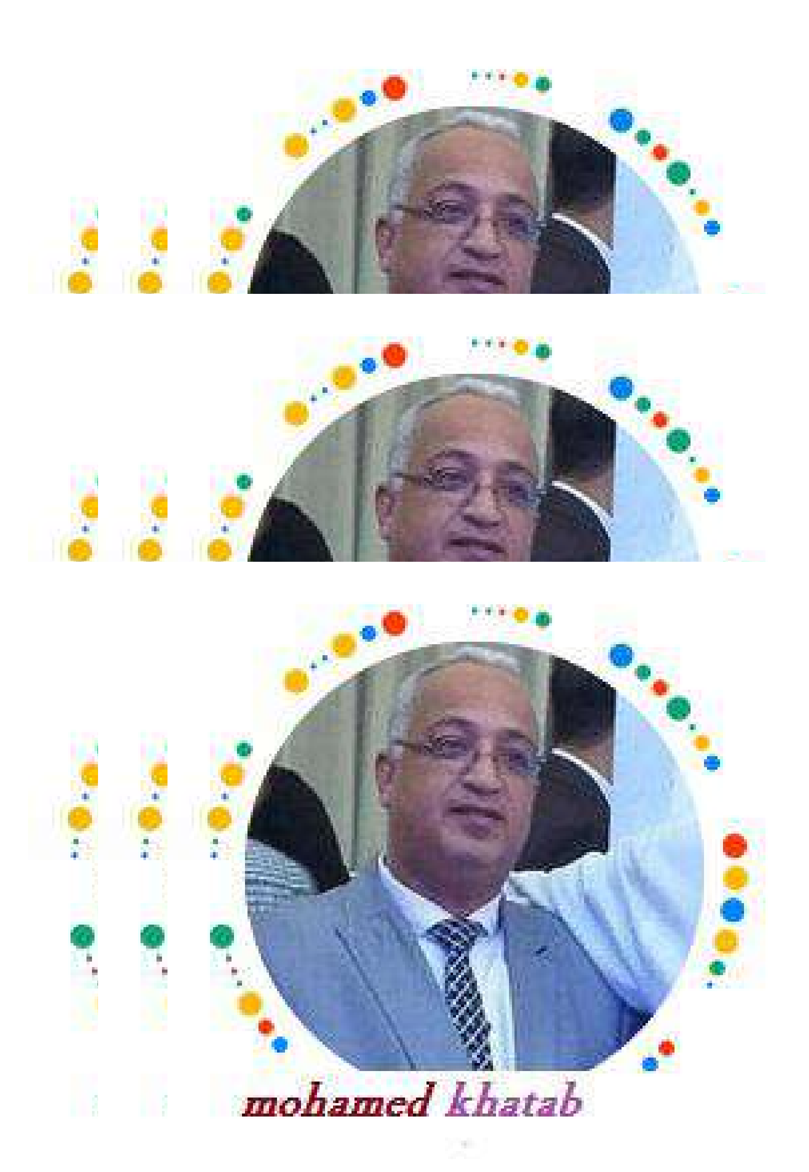
سلسلة الأفكار الكبرى للشباب

اللاوعي

ترجمة: نولة درويش



3090


mohamed khatab

المركز القومي للترجمة

تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: د. جابر عصفور

إشراف: د. أنور مغيث

اللاوعيّ

العدد: ٣٠٩٠
تأليف: إليزابيث رودينسكو
ترجمة: نولة درويش
الطبعة الأولى: 1438 هـ - 2017م

دار العين للنشر
الإدارة: 4 ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة
تليفون: 23962475 2+ فاكس: 23962476 2+
المدير العام: د. فاطمة البودي
E-mail:elainpublishing@gmail.com



المركز القومي للترجمة
شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة
ت: 27354524 - 27354526 فاكس: 27354554
E-mail:egyptcouncil@yahoo.com

هذه الترجمة العربية لكتاب:

L'inconscient expliqué à mon Petit-Fils

Par: Élisabeth Roudinesco

يصدر بالتعاون مع دار العين

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: 27354524 - 27354526 فاكس: 27354554

El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo
Email: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: 2017/13177
ISBN: 978 - 977 - 490 - 463 - 9

اللاوعي

تأليف

إليزابيت رودينسكو

ترجمة

نولة درويش





بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

رودينسكو، إليزابيت

اللاوعي/ تأليف إليزابيت رودينسكو؛ ترجمة نولة درويش.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٧

ص؛ سم.

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٤٩٠ ٤٦٣ ٩

١- اللاشعور

أ- درويش، نولة (مترجم)

ب- العنوان

١٥٤,٢

رقم الإيداع / ١٣١٧٧ / ٢٠١٧

إلى جابور وبيرنيت

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي، وتعريفه بها. والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المركز.

أشكر لوسي (11 سنة)، وزوي (12 سنة)، ونينون (8 سنوات)، وكارين (9 سنوات)، وإميل (11 سنة)، وفيتيا (11 سنة) وجابرييل (13 سنة) الذين وافقوا على الإجابة عن أسئلتي واقتسام مفهومهم حول اللاوعي، والحلم، والعقل، والحياة الجنسية معي.

المحتويات

الفصل الأول

لنتمهل لكي نفهم ما لا نراه

- ما اللاوعي بالضبط؟

إنه أشبه بجبل الثلج الذي يطفو على سطح البحر، أي: كما تعلم تلك الكتلة الثلجية العائمة التي تظهر فوق البحر في المناطق المقاربة للقطب الشمالي: إنها كتلة مثلجة، تبدو كالتائهة، وهي مدببة، ومشطوفة، قد تكون قصيرة أو أن عوامل التعرية قد أثرت في حجمها. فلنتخيل لحظة هذا الشيء الجميل الساكن الذي يعوم نصفه على السطح بينما ينغمس النصف الآخر في أعماق المحيطات. والواقع أن النصفين ليسا متساويين؛ فالجزء الخفي هو الأهم والأكثر خطورة ربما لأنه يظل متخفيا؛ وهو الأمر الذي يدركه جميع البحّارة الذين يهابون منه أكثر مما يخشون الجزء المرئي لهذا الجبل. فاللاوعي هو ذلك الجزء الغاطس للجبل الذي

يتكون من عدة طبقات تحتوي على جسور، وخنادق، ومتاهات؛ ويمكننا مقارنة اللاوعي ببيت عائم لا نستطيع تحديد معالمه بدقة ولكننا نشعر بوجوده.

- ولكن، كيف يمكن أن يكون هذا البيت حاضرًا وغائبًا، عائمًا وجامدًا في الوقت نفسه؟

ذلك لأنه بيت أشبه بالمركب الذي يسير بلا دفة، ولا شراع أو محرك؛ إننا لا نعلم شكل هذا المركب أو المكان الذي سوف يرسو فيه؛ وبهذا المعنى، فإن اللاوعي - الذي يمكن مقارنته بالمنزل المشار إليه - هو عبارة عن حالة من عدم الوعي، أي عن نشاط لا يخضع للمنطق. حينما نجد شخصًا غير واعٍ، يقال :إنه مجنون، أو إنه فقد الوعي بمعنى أغمي عليه. وفي رأي "زوي" - ابنة صديقتي "جولي" - والتي تصغرك بأربع سنوات أن الإنسان واعٍ حينما يدرك ما الذي يفعله، وبالتالي يتحكم في مشاعره إلى هذا الحد أو ذاك، بينما حينما يكون غير واعٍ، فإنما لا يعلم ما يتم في المخ، أو كأننا في حالة النوم.

- هل يمكن القول إن فاقد العقل مجنون؟

الإجابة بنعم ولا؛ إذ إن الحكم يتوقف على نظرتنا لهذا الإنسان. ففي العصور الوسطى، كان ينظر إلى فاقدي الوعي أو عديمي الوعي على أنهم مدمنو الخمور الذين يغوصون في الملذات

ويشتهون المهرجانات وحفلات التنكر ويسعون إلى الوصول لحالة التيه. لقد قام رسام كبير اسمه "جيروم بوش" بتقديم حالة عدم اللاوعي تلك في لوحة شهيرة بعنوان "مرفأ المجاذيب" يمكنك أن تشاهدها في متحف اللوفر؛ فقد جمع في مركب منحرف ما يقرب من عشرة أشخاص منعدمي الوعي، أي رجال ونساء جالسين حول مائدة طعام وأفواههم فارغة، لا يعرفون ما يقضمون، ولا هم قادرون على الأكل، أو الغناء. هناك بطة مشوية معلقة بساري المركب لا يمكن أن يصل إليها أحد، وبدلا من الشراع المفترض توجيه خط سيرهم، قام "بوش" برسم فطيرة، كما وضع مغرفة عملاقة في يد بحّار أعمى.

هؤلاء النساء والرجال يعيشون في عالم معكوس بسبب انغماسهم في اللاوعي، فهم لا يتوجهون نحو أي مكان، ورؤوسهم لا تتحكم في أجسادهم؛ إنهم يسكنون منزلًا بلا أساسات غير قادرٍ على الرسو على أي أرضٍ؛ وهم يمتلكون القوت ولكنهم غير قادرين على تناوله. هذا هو اللاوعي بمعنى فقدان الوعي؛ أي السفر خارج نطاق الوعي.

- ولكنك لا تقولين سوى أمور سلبية حول اللاوعي!

أنت على حق؛ ولكن اللاوعي هو أيضًا بلاد العجائب، ويمكن أن نضفي عليه ألوانًا جميلة؛ فلو أحببت الفكرة، يمكن اعتبار أن

اللاوعي لونه ذهبي مثل قصص الأميرات اللاتي يوقظهن أمير الأحلام بعد سفر قضيناه داخل ثمرة اليقطين (أو القرع)؛ كما يمكن أن يكون اللاوعي عبارة عن حفرة سوداء مليئة بالحزن، أو يكون لونه أحمر بلون الغضب، أو أزرق كلون السماء في يوم ربيعي بالريف.

أما صديقتك "لوسـيل" - وهي ابنتـي بالعمادة - التي تصغرك بخمس سـنوات، فهي قالـت ذات يوم أن اللاوعي أشـبه بالعجة المختلطة في رأسها، وكانت تعني أن اللاوعي فوضى جميلة ولكنه قابل للأكل.

- إذن هناك فرق بين فقدان الوعي وأن يكون للإنسان لاوعي؟

نعم لأن فقدان الوعي أو العقل معناه القيام بأفعال مجنونة. أما امتلاك اللاوعي فيعني أن بداخلنا ذلك المنزل أو المكان الذي يهرب من سيطرة وعينا، وهو مملوء بالخيال والحدس والمشاعر. واللاوعي هو حينما لا تتخذ قرارًا وإنما - كما تعبر عنه "لوسي" أو حتى كما يقول "فيتيا" - هو "حينما أنطق بشيء لم أكن أريد أن أقوله".

- هل هناك أسماء أخرى للإشارة إلى اللاوعي؟

في الواقع، هناك الأسـماء التي نخترعها حينما نريد الإشـارة

إلـــى اللاوعي، ومن ناحيـــة أخرى هناك الطريقة التي يســـتعملها العلماء للإشـــارة إليه، وهم الذين خلقوا مسميات متعددة له؛ فحيث إن اللاوعي عبارة عن بيت عائم ومختبئ، فهو أيضًا الوجه المقابل للوعي، وهو ما يشـــار إليه بما دون الوعي أو العقل الباطن، وهي حالة يحدث فيها الانفصال بين ما تفكر فيه وما تفعله.

- *كيف يمكن أن يحدث هذا الانفصال؟*

على سبيل المثال، أنت تفكر أن عليك ارتداء حذائك عالي الرقبة للتنزه تحت المطر، فترتديه بحرص وتسير قليلا، ثم تكتشف فجأة أن قدمك اليمنى داخل الفردة اليسرى للحذاء، فما الذي حدث؟ لقد وقعت ضحية لحالة من الآلية العقلية وكأنّ هناك إنسانًا آليًا هو الذي تصرف مكانك.

- *وكيف يمكن إبطال هذه الحالة الآلية؟*

يمكنك مقاومتها مثلا بشراء فردة حذاء حمراء وأخرى زرقاء حتى لا تخطيء بين القدمين؛ولكنك في هذه الحالة قد تبدو مجنونًا أو فاقدًا للوعي الكافي الذي يسمح لك بالتمييز بين اليسار واليمين. لكل إنسان ردود أفعال أو حركات تتم بطريقة آلية، وبالتالي لكل إنسان عقله الباطن الذي يختلف عن وعيه؛ كما لكل إنسان أفعال لاإرادية، أي حركات آلية لا يتحكم فيها، وهي ردود أفعال لا إرادية تصدر عن أعضاء الجسم. لقد اهتم الفلاسفة والأطباء والكتاب

والشعراء منذ زمن بعيد بفكرة أن تفكيرنا ينقسم إلى قسمين؛ فمن ناحية نكون كالآلة ومن ناحية أخرى هناك وعينا.

- قولي اسم الذي قسم تفكيري إلى قسمين..

إنه الفيلسوف الفرنسي "ديكارت" الذي ألّف في القرن السابع عشر - أي قبل ما يقرب من أربعمائة عام - مفهومًا للتعبير عن هذه الفكرة؛ فقد أفاد بأن هناك تعارضًا بين المنطق وما لا يخضع له؛ وقد سمى ما نفكر فيه "كوجيتو" (cogito) وقسمه إلى جزءين: جزء عاقل ومنطقي يرتبط بالوعي، أي ما نفكر فيه بطريقة واعية، وجزء غير منطقي يمكن إحالته إلى مجال الجنون؛ هذا الجزء الأخير قد يخرج فجاة من مخبئه حينما نتخلى عن العقل تحت تأثير الغضب ولا نستطيع السيطرة على أنفسنا. حينئذٍ يقال إننا "خرجنا عن طوعنا" أي أننا فقدنا وعينا.

- وماذا جاء بعد "ديكارت"؟

هناك كثير من المفكرين ممن يسمونهم أطباء نفسيين ومتخصصي علم النفس،الذين قاموا بعد "ديكارت" بمائتي عام بالإشارة إلى هذا "المنزل غير الواعي" - أي هذا المكان الذي يحتوي على الهلوسة والتخيلات - بالعقل الباطن.

- ولكن، ما الفرق بين اللاوعي والعقل الباطن؟

اللاوعي هو عندما يكون الشخص بلا وعي، أما العقل الباطن، فهو موجود فيما فوق الوعي؛ فهذا التعبير الأخير- وإن كان يشير إلى الجزء المخفي لجبل الثلج- فإنه لا يتعلق بشيء غير عاقل أو خارج حدود المنطق؛ فلو كان العقل الباطن يملي علينا الأوامر، ويسيطر علينا، ويجعل أفعالنا ذات طبيعة آلية، فهذا معناه أننا خاضعون لسيطرة ما ولكننا لسنا مجانين، والفرق هنا مهم؛ فالشخص الخاضع لتلك السيطرة لم يفقد العقل أو الوعي، فقد اكتفى بنقل جزء من نفسه (أي جزء من روحه، أو عقله، أو حالته العقلية) في اتجاه شيء، أو فكرة، أو مؤسسة، أو طبيب، أو كاهن، أو قائد عظيم، أو ساحر، أو أحد الآلهة ذكرًا كان أو أنثى، وأوكل لهؤلاء قيادة حياته. فلم يعد هذا الشخص يفكر بنفسه، ولم يعد حرًا لأنه وضع حريته تحت السيطرة بمعنى أنه أصبح تابعًا لشيء آخر هو الذي يفكر بديلا عنه، ولكنه ما زال ينعم بملكة التفكير.

- إذن ما الفرق بين الكاهن، والساحر، والطبيب النفسي، والمتخصص في علم النفس؟ هل يهتمون جميعًا بالشيء نفسه؟

الساحر ينتمي إلى الروايات والأساطير الخيالية، وتُنسب إليه قدرات سحرية على الشفاء والتنبؤ؛ وكثيرًا ما يتم تصويره مرتديًا قبعة مدببة وملابس مهلهلة، ويتحرك في الفضاء على ظهر مكنسة؛ ولكنه قد يشبه أحد أبطال اليوم الذين تحبهم، مثل "هاري بوتر"،

ذلك اليتيم البريطاني الذي انتسب تدريجيًا منذ سن الحادية عشرة إلى عالم موازٍ للعالم العادي الذي يحيا فيه زملاؤه. الساحر هو ملك اللاوعي، وهو المختار لدى طائفة تتخيل أنها تستطيع فك جميع الطلاسم على مستوى العالم.

- *وماذا عن الكاهن؟*

الكاهن ممثل لديانة ما، أي لنظام من المعتقدات التي تجيب عن مجموعة من التساؤلات الوجودية، مثل: من أنا؟ من أين جئت؟ إلى أين أذهب؟ ما الذي يقودني دون علمي؟

كما يهتم الكاهن بأحوال فاقدي العقل، ولكنه يقوم بذلك من خلال توجيههم نحو التحلي بالإيمان أو القيم الروحية، أي نحو شيء أسمى لا نتعرف عليه بمجرد امتلاك قدر من المعلومات المنطقية، أي أنه يقودهم نحو الخضوع لسيطرة أكبر؛ فالكاهن هو المتحكم في الناس الذين يؤمنون بالإله الجبار وهو ملك الكون والأقدار.

- *ما الفرق بين الطبيب النفسي والكاهن؟*

الطبيب النفسي يهتم بالمرضى في المستشفيات وفي الحياة العادية حيث يقوم الناس بزيارته؛ وهو يعتبر الخضوع لسيطرة ما نوعًا من المرض؛ والطبيب النفسي لا يتحكم في المجانين، وإنما هو ملك العقل الباطن الذي يفسر آلياته من خلال تصنيفات دون

الحاجة إلى الإيمان بقوة أعلى من الإنسان؛ فهو يقترح الأدوية، ويقدم النصائح والعلاجات الجسدية أو العقلية من أجل حياة أفضل، والتمتع بقدرة أفضل على الأكل وعلى السيطرة على دفة حياة الشخص؛ إنه طبيب للروح والجسد في الوقت نفسه.

- *وما معنى التصنيفات التي تشيرين إليها؟*

على سبيل المثال، يمكن القول إن من فقد روحه، أو أصبح "ملموسًا"، أو تابعًا لسيطرة خارجية مصاب بأعراض متنوعة مثل: ثنائية الشخصية، والاكتئاب، والنشاط المفرط، والنرجسية، والقلق، والانحراف، والهوس، والشيزوفرانيا (الفصام)، والبارانويا (جنون الاضطهاد)، أو إنه ينتمي إلى الحالات الحدّية، إلخ. إنها تسميات سوف تجدها يوميًا في الجرائد وهي تنتمي إلى عالم الأطباء النفسيين.

- *وماذا عن المحلل النفسي؟*

المحلل النفسي ليس طبيبًا ولكنه يعالج اضطرابات الروح، والعواطف، والآلام المتنوعة؛ وخلافًا للسحرة والكهنة والأطباء النفسيين، يحتل المحللون النفسيون مرتبة ملوك المنطق؛ فهم يسعون إلى إخضاع العقل الباطن لسيطرة العقل والمنطق والوعي؛ إنهم يسعون إلى العلاج والشفاء وتتم الإشارة إليهم بمتخصصي علم النفس؛ فهم خُدّام العقل الذين تعلموا العلم من خلال الكتب

وتعرفوا على الفنون الإكلينيكية من خلال الدراسة الجامعية.

- *وما معنى الفنون الإكلينيكية؟*

هي عبارة عن فن تفسير أعراض المرض.

- *ما المشترك الذي يجمع بين هؤلاء جميعًا؟*

لدى الكهنة والسحرة والأطباء النفسيين وخبراء العلاج النفسي نقطة مشتركة، وهي انهم يهتمون بامراض الروح، بعضهم من خلال ممارسة طقوس الاعتراف والمناولة، أو اقتراح الأدوية العلاجية، أو إقامة العلاقات التبادلية، أو تقديم التحضيرات السحرية، أو القيام بالطقوس الشعائرية.

- *وما الذي يفرق بينهم فعليًا؟*

يؤمن الكهنة والسحرة بحقيقة مقدسة ومطلقة غير قابلة للانتقاد أو التشكيك فيها، وينبغي على الجميع الخضوع لها ومنها: العادات المتعلقة بالملبس والمأكل، وإقامة الصلوات، والامتثال لقوة لا يجوز رفضها؛ أما الأطباء والخبراء النفسيون، فهم يحملون علمًا تم تعلمه لكنه لا يعد حقيقة ذات طبيعة أبدية، بل هو علم قابل للتشكيك أو الجدل.

الفصل الثاني

أين يختبئ اللاوعي؟

- فهمت أن هناك تسميات متنوعة للإشارة إلى اللاوعي، ولكن اين هو؟ هل هو موجود في الرأس؟

هذا السؤال جيد؛ فاللاوعي يوجد في المخ، تلك الكتلة الكيميائية المنغلقة داخل الرأس والتي تتكون من أنابيب تسمى الخلايا العصبية أو النيورونات والتي تشبه الطرق الجبلية التي تتخللها أنفاق متداخلة فيما بينها.

- كيف نعلم ما الذي يجري داخل المخ؟

لقد بدأت معرفة ما يدور داخل المخ حينما أخذ العلماء بعين الاعتبار أهمية هذه الكتلة منذ ما يقرب من مائة وخمسين سنة، أي في منتصف القرن التاسع عشر؛ في الفترة نفسها، هناك عالم شهير اسمه "شارل داروين" أشار إلى أن الله لم يخلق الإنسان دفعة واحدة

وإنما انتمى البشــر في البداية إلى العالم الحيواني وخضعوا لأحد قوانين الطبيعة غير القابل للتحكم فيه، وهو قانون النمو والارتقاء. وقــد تم الاعتراف اليوم بأن الإنســان ينحدر من أســلافه القرود، وأن مخــه قد تطور على مدار ملايين الســنين ليصبح أكثر تعقيدًا وأفضل أداء على امتداد الوقت. فالمخ البشري الأكثر نموًا من مخ الحيوان يحمل الوعي، والذكاء، والروح، والمشاعر والعقل وكذلك اللاوعي.

- *من الذي يدرس المخ؟*

إنهم أطباء الأعصاب، والمتخصصون في علم الأحياء، وجميع العلمــاء ســواء كانوا أطباء أو غيــر ذلك، وكذلــك خبراء علوم الأعصاب: فهم الذين يهتمون بآليات الجهاز العصبي.

- *ولكن، هل يختبئ اللاوعي في دهاليز المخ؟*

يسمح المخ للإنسان أن يعيش ويفكر؛ ولذلك يقال بطريقة دارجة عن شخص شــديد الذكاء أنه الـ"مخ" لهذه المنظمة أو تلك؛ إلا أن المخ ليس ســوى الداعمة المادية للفكر؛ أي آلة بيولوجية وكيميائية تتحكم في الكائن الحي. وقد ســمح التقدم التقني في أيامنا بملاحظة جميــع حركات المخ، فيمكن أن نراه يتحرك أو يغضب، كما يمكن أن نلاحظ إخفاقاته؛ فحينما تنتابك مشــاعر وانفعالات شديدة القوة، فإنمــا يكون لمخك رد فعل؛ غير أنــه لا يمكن ملاحظة الفكر من

خلال المجهر، أو حتى من خلال تقنيات الاكتشاف المعاصرة مثل الإسكانر، أو الحاسب الآلي، أو أجهزة الرنين المغناطيسي؛ كما لا يمكن رؤية العقل، أو الروح، أو الوعي، أو المنطق، أو العقل الباطن؛ فاللاوعي لا يختبئ داخل المخ وإنما هو موجود بفضله.

- ولكن كيف يمكنك القول بأنه موجود رغم أنه لا يمكن رؤيته؟

ذلك أن اللاوعي أمر مجرد، أي تصور للعقل؛ فنحن نفكر بواسطته، ونشعر به، ونقوم ببنائه وتطويره إلا أنه لا يمكن لمسه، أو رؤيته أو الإمساك به؛ وهو لذلك لا يمكن أن يكون "دماغي" فقط. والواقع أنه لا يسكن في أي مكان، ولكنه يطل علينا، ويعبر عن نفسه؛ إنه مغلف بالوعي الذي لا نراه هو الآخر.

- وحينما يفقد الإنسان عقله، هل يحتفظ باللاوعي؟

بالقطع لا، حيث إن المخ عبارة عن الآلة التي تتحكم في جميع أعضاء الجسم، بما فيها الخلايا العصبية التي تسمح بالتفكير؛ فحينما يفقد الإنسان مخه، أو يكف المخ عن العمل تمامًا يكون الإنسان قد مات حتى عندما يتم إبقاؤه على قيد الحياة بواسطة أجهزة التنفس والنبض الصناعي؛ يقال حينئذٍ إن هذا الإنسان في حالة موت دماغي.

- بما أنه يمكننا مشاهدة المخ، فهل له نشاط ما؟

نعـــم، ولكنه لا يســـتطيع تأليف كتاب لوحـــده، أو تلحين قطعة موسيقية، أو بناء مدن، أو اختراع ديانات؛ فوحده الكائن المفكر هو القادر على فعل كل ذلك، ووحده ذلك الكائن المفكر هو الذي يمتلك اللاوعي المتخفي داخل وعيه.

- ولكن، كيف يمكننا الجزم بأن اللاوعي موجود فعليا؟

اللاوعي موجود بمثابة قوة وطاقة تعبر عن نفسها من خلال المشاعر: عندما تشعر بالفرحة بدون سبب، أو لديك الانطباع بأنك قادر على الطيران في الهواء للإمساك بالعصافير، أو أن بدلا من حذائك ذي الرقبة العالية تمتلك حذاءً قادرًا على القفز فوق المسافات ويسمح لك بالعدو أسرع من الغزال والحمار المخطط. صحيح أن اللاوعي ليس له رائحة أو لون، ولكنه قد يكون رائع الجمال لأنه غامض، ويثير المخ، أو كما قال الشاعر الإنجليزي "وليام ووردسوورث" الذي يبدي انبهاره بذلك الينبوع المختفي الذي تنبثق منه أفكاره الخاصة:

كنت أنمي داخل نفسي تجانسًا لا واعيًا مع الجمال (...)
مع الكهوف، نعم، تلك الموجودة داخل عقلي
والتي لا تستطيع الشمس اختراقها أبدًا.

- ولكن هل تستطيع هذه الطاقة النابعة من الكهوف أن تخترق الجسد؟

يعبر اللاوعي عن نفسه أيضًا عن طريق اللغة، حينما يتحدث أو يفكر بدلا منك كما تشير إليه "زوي" التي تقول نفس ما يقوله كل من: "جاك لاكان" والفيلسوف "ابن رشد"؛ فعندما تريد مثلا أن تقول "أحب والدي" ولكنك تنطق بدلا من ذلك "أريد جملي الصغير"، فإنك سوف تشعر بالاندهاش وسوف تحاول أن تفهم كيف جاءت جملة محل الأخرى؛ كما ستسعى إلى استيعاب سبب الاستبدال بكلمة الجمل وأنت تفكر في والدك؛ فهل أهدى لك والدك لعبة على هيئة جمل كنت تحتفظ به بجانبك خلال ذهابه للعمل خارج المنزل؟ أو أنه في اللحظة التي كنت تريد فيها أن تعبر عن حبك لوالدك، طرأت في رأسك صورة الحيوان الذي تحبه أكثر من أي شيء آخر، وحتى أكثر من والدك؟ الإنسان وحده هو القادر على الكلام، وعلى إحداث تلك التبديلات، وعلى اختراع اللغات والكلمات التي تعبر عما يفكر فيه وفي الوقت نفسه عن المعاني التي تنبثق من داخله حينما يتحدث.

- هل يعلم جميع الناس أنهم يمتلكون "لا وعي"؟

هذا سؤال حساس؛ فقد طرحت أوروبا والمجتمعات المسماة بالغربية السؤال الخاص بإدراك اللاوعي حينما تطرقت إلى الشعوب

الأولية البدائية، أي الشعوب الأصلية التي تعيش بلا كتابة وبلا دولة أو حماية؛ وهي شـعوب تشكل مجتمعات تحكمها العادات والتقاليد المتوارثة مـن الآباء والأجداد جيلًا بعد جيل. تقيم تلك الشـعوب علاقات وثيقة مع الطبيعة والحيـوان، وهي ما زالت تمثل أعدادًا كبيرة على مستوى العالم كالتي موجودة في منطقة الأمازون، وفي جزر المحيط الهادئ، وفي إفريقيا، وإندونيسـيا وجزر الكاريبي، إلخ. لقد ذهب علماء الأجناس إلى أن هذه الشعوب لا تفكر مثلنا ولا تعتقد أنها تمتلك "لاوعي"؛ فالطبيعة بالنسبة إليهم عبارة عن وحدة متكاملة بما تحتويه من أعشـاب، وبشر، وحيوانات، ولا يعترفون بالفصل بين الوعي واللاوعي، بين المنطقي وغير المنطقي.

- هل تفكر هذه الشعوب في شيء؟

هي لديها فكر ولديها لاوعي؛ ولكنها لا تمتلك معرفة الذات التي تسمح لها بتسمية الوعي واللاوعي بالطريقة نفسها التي نشير بها إليهما. فهي شعوب تصنف البشر، والأعشاب، والأشياء، والحيوانات بطريقة مماثلة لطريقة النجار الذي يصلح الأشياء بواسطة قطع خشب متناثرة حوله. يقوم بتوجيه هذه الشعوب نفر من الكهنة والسحرة يطلقون عليهم تسمية الـ"شامان"، أي المعالجين الذين يؤمنون بالوساطة بين عالم يقال إنه غير مرئي (أي عالم الأرواح الطيبة والأرواح الشريرة، والأموات، والجدود، وأنصاف

البشر وأنصاف الحيوانات) والعالم المرئي للمجتمع المحيط.

- هـل يقيم هـؤلاء الـ"شـامان" الحرب علـى الكائنات غير المرئية؟

بالفعل، عندما يبدأ أحد أعضاء المجتمع المحلي في اتباع سلوكٍ غريبٍ، فإنهم يدخلون في حـرب مع الأرواح التي خطفت روحه وفصلتها عن جسـده. لقد دافع عالم الأجناس الفرنسي الكبير "كلود ليفي-شـتراوس" عن هذه الشعوب البدائية مشـيرًا إلى أن طريقة تفكيرهم التي تنعت بالـ"همجية" لم تكن قط أدنى من طريقة تفكيرنا؛ فاللاوعي لديهم هو ذلك العالم الخفي المليء بالأساطير والذي يقود أفعال الناس، ويسـرق أرواحهم، ويقودهم إلى الجنان، ويتحكم في حياتهم وموتهم، ويوجه اختياراتهم في الحياة.

- ما الذي يفعله الـ"شامان" عندما يفقد الشخص روحه؟

حينما يفقد الشخص روحه، يدخل "الشامان" في حالة من الغشية والوجد الصوفي وحتى في نوع من الجنان ليسافر بنفسه بين الأرواح باحثًا عن الروح الضائعة كالصياد الذي يقتنص صيده؛ فيقوم باقتناص الأرواح الموجودة في العالم الخفي، والدخول في مفاوضات معها، وتقديم الهدايا لها حتى يعود إلى المنزل بالروح التائهة ويعيدها إلى جسد الشخص المريض.

- ما تحكيه لي لا يندرج تحت حدود المعقول!

بالفعل هذه الطريقة في التفكير لا تمت بصلة بالفكرة التي نتصورها عن اللاوعي في العالم الأوروبي حيث نعتبر أنه من أجل اكتشاف مكانه لا بد أن نعي أولا أن كل إنسان مدرك لوجوده ولنفسه؛ في عالمنا إذن يسبق الشعور بالوعي الولوج إلى منطقة اللاوعي.

- ولكن، ما الوعي، هل هو أنا؟

نعم، فحينما ننطق بكلمة "أنا"، فإنما نعبر عما نشعر به وعما نريد أن نقوله، أي عن شيء ذاتي؛ أما عندما نقول "أنا أقوم أو أفعل أو أفكر" فالمعنى يكون أقوى إذ إننا نعيد كل شيء لشخصنا الذي يعتبر نفسه هو الملك المتحكم في العالم أجمع.

- هل الأنا أمر ما زال موجودًا أو أنه انتهى؟

الأنا عبارة عن الذاتية أي ما هو شخصي بالنسبة إليك؛ وللذاتية أوجه متنوعة؛ وكي أعطيك مثالًا مضحكًا، يمكن مقارنة الذاتية بمجموعة من المرايا التي تعكس صورًا مشوهة كما تراها في مدينة الملاهي والتي تبدو فيها أحيانًا رفيعًا كثمرة الأسبار جوس (الهليون) أو سمينًا كالبرميل.

- ولكن هل هناك مكان للذاتية في القصة التي تحكيها عن المعالجين والشعوب البدائية؟

أجل، تحتل الذاتية مكانًا، ولكنه لا يتم الاعتراف بها على هذا النحو؛ فليس لها مجال من الإعراب لدى هذه الشعوب؛ ليس الفاعل هو الذي يعبر عن نفسه، وإنما من يقوم بذلك هي الأرواح والأشياء؛ فمثلا، نقول عندنا "إنني إنسان كريم، وقد ساعدت امرأة في محنة"، ولكن طريقة التعبير سوف تختلف عند هذه الشعوب حيث يقولون "إن الكرم النابع من الإنسان هو الذي أسعف المرأة التي وجدت نفسها في وضع صعب"؛ ففي الحالة الأولى، يكون اللاوعي داخل الأنا، أما في الحالة الثانية، فهو في الصفة التي تطلق على الشخص.

الفصل الثالث

اللاوعي ما بين الماضي واليوم

- لقد فهمت ان اللاوعي موجود بفضل المخ، وانه موجود دون ان يكون مرئيًا ويحمل أسماء متعددة وفقا للثقافات والأزمنة المختلفة. حينما تحدثتِ عن الروح، هل هي طريقة مختلفة للإشارة إلى اللاوعي؟

بكل تأكيد؛ فاللاوعي مثل الروح، والروح هي الجزء غير الواعي للذاتية؛ والروح كالنسمة أو النفس، إنها محرك الحياة وهي بصفة خاصة شيء يفوق الوجود البشري، أي مبدأ روحي غير مادي؛ فلا تراها، وهناك أشكال متنوعة لوصف الروح بنفس قدر تنوع الأديان والمعتقدات؛ تلك الطرق لوصف الروح نجدها في القصص الساعية لأن تشرح للبشر تاريخهم الماضي والقادم. فعلى غرار اللاوعي، لا توجد هناك أدلة على وجود الروح.

- من أين تأتي الروح، هل من العالم الآخر، أم من الكواكب الأخرى، أم من الله؟

إنها تأتي من داخلك، لكنها تأتي أيضًا من الثقافة والأديان؛ فقد درست في المدرسة الحضارات المختلفة، وأنت تعلم أن اليهود هم أول من آمنوا بالإله الأوحد منذ أكثر من عشرة آلاف عام، وذلك حينما كانوا عبيدًا في مصر؛ ثم جاءت المسيحية مع يسوع، والإسلام مع محمد، وهما امتداد لليهودية. تعتبر تلك الديانات التوحيدية أن الله هو روح الإنسان، أي أنه اللاوعي بالنسبة للإنسان.

- كم هو قوى هذا الرب!

لن تتخيل كم أنت محق؛ فحتى إن كانت هذه الديانات تنادي بالحب، فإنها ناقلة للكراهية، ذلك إنها تستند إلى حقيقة منزلة لا تقبل الشك؛ وبالتالي، فإنها تعلّم الناس نبذ الديانات والحضارات الأخرى. هذه الديانات تحمل في طياتها التعصب؛ فدائمًا ما يدخل البشر في حروب ويضطهدون بعضهم البعض باسم هذا الرب الأوحد. والديانات دائمًا ما تفتقد إلى التسامح حينما تدعي السيطرة على الضمائر من خلال الحب. وهو ما يستدعي وضع مسافة فيما بين الله والسيطرة على الفكر وعلى الدولة، وإلا استبدلنا عبارة "أنا أفكر إذن أنا موجود" بعبارة "أنا أؤمن وبالتالي الله على حق".

الطريقة الأفضل لحماية النفس من هذا التعصب - مع احترام

معتقدات كل شخص- هي أن يتم حكم البشر وفقا لمبدأ الحق والمنطق؛ وهو ما نسميه بالعلمانية والذي تنفصل فيها الدولة التي تحكمك عن الدين؛ فهي دولة تقبل جميع الديانات ولكنها تظل محايدة؛لأن لا دين للدولة في هذه الحالة، وبالتبعية يصبح اللاوعي علمانيًا هو الآخر، أي أشبه بالإله الذي فقد سلطته العليا ليصبح قدرك الخاص؛ فالمستبد هو أنت، هو موجود بداخلك، ولكنه لم يعد إلاهًا؛ إنه بقايا إله. هذا هو الفرق بين اللاوعي في الماضي واليوم.

- ما الذي يحدث حينما يكون هناك أكثر من إله؟

في هذه الحالة تقل فرص وجود فكرة الحقيقة المطلقة حيث يتسم الآلهة بسمات البشر ويتعاركون فيما بينهم. لقد ألفت صديقتي "كاترين كليمان" كتابًا بعنوان "القاموس الغرامي للآلهة الذكور والإناث"، وهو ما يمكنك الاطلاع عليه. تذهب "كليمان" إلى أن العالم مليء بآلاف الآلهة الذين يتزاوجون ويقيمون الحفلات المرحة؛ إنهم يستبدلون جنسهم وكينونتهم، ويتحولون إلى حيوانات، ويتقاتلون ثم يبعثون من جديد دون أن يتحولوا إلى طغاة؛ إنهم يلهون؛ تلك الآلهة تعد هي الأخرى اللاوعي بالنسبة للإنسان.

- إنني أعرف آلهة الإغريق..

نعم، أعلم أنك درست تاريخ اليونان القديمة التي أصبحنا ورثتها اليوم، كما نحن ورثة اليهودية والمسيحية. إنك تعرف "هوميروس"

الذي حكى قصص الحروب بين اليونانيين وأهل طروادة؛ كما تعرف "أفلاطون" الذي ولد في أثينا قبل المسيحباربعة قرون، وألف الفلسفة من خلال نشر أفكار أستاذه "سقراط"؛ وأخيرًا تعرف أن في هذا العالم اليوناني الذي تتعدد فيه الآلهة الذكور والإناث، كان البشر والآلهة يتعايشون معًا ويتقاسمون الحكايات المرتبطة باصولهم وبقصص الحب لديهم.

- *هل لهذه الحكايات مكان في اللاوعي؟*

بكل تأكيد؛ ففي هذا العالم المصنوع من أساطير وحكايات، نجد الآلهة مقدسين والبشر نصف مقدسين، وتظل الحدود فيما بينهما غير دقيقة المعالم؛ أما فيما يتعلق برجال الطبقات العليا، فهم يحكمون بقية البشر، وخاصة العبيد الذين يتم النظر إليهم كأشياء.

يتم اعتبار بعض آلهة الإغريق من الوسطاء الروحيين الذين يتنبؤون بالمستقبل؛ فيحضر إليهم الناس ليحصلوا على إجابة حول الماضي والمستقبل، ولا يمكن لأحد أن يفلت من النبوءة والتي دائمًا ما تحتاج إلى تفسير بسبب غموضها وإبهامها الشديدين. وهكذا يصبح القدر هو اللاوعي بالنسبة لليوناني القديم والذي يجبر الإنسان على إطاعة النبوءة بطريقة عمياء مهما حاول أن يعمل؛ وفي هذه الحالة لا تفيد ذاتيته وضميره سوى إلى تأكيد قدره المحتوم، كما أنه غير مسموح له بإقامة مسافة بينه وبين هذا المصير.

- لقد قرأت في أحد كتب الرسوم الهزلية قصة ذلك الملك الذي يواجه وحشًا أنثويًا، ويحل لغزًا، ويقتل والده ثم يتزوج أمه..

نعم، الموضوع يتعلق بأشهر بطل في التراجيديا اليونانية، وهو "أوديب"، ابن "لايوس" و"جوكاست"، ووريث سلالة "اللبداسيد" الحاكمة؛ فمن أجل تفادي تحقق نبوءة كاهن "أبوللو" التي تقول إن ابنه سوف يقتله، فضل "لايوس" - ملك "طيبة" حينذاك - أن يسلم الابن عند مولده إلى خادم ليتركه على جبل "سيثريون" بعد أن يكون قد ثقب قدميه بمسمار. وبدلا من إطاعة سيده، قام الخادم بإيداع الطفل لدى راعي غنم سلمه بدوره إلى "بوليب"، ملك "كورنثيا"، ذي الزوجة العاقر؛ فأطلق الزوجان على المولود اسم "أوديب" أي: الشخص ذو القدم الوارمة، وقاموا بتربيته تمامًا كأنه ابنهم الطبيعي.

لما كبر "أوديب"، قام الشاب باستشارة مُنجّم مدينة "ديلف" الذي تنبأ بأنه سوف يقتل والده ويتزوج أمه؛ ظنًا من "أوديب" أنه سوف يفلت من النبوءة، قام الشاب بالابتعاد عن "كورنثيا" متوجهًا نحو "طيبة"، وفي الطريق إليها صادف الملك "لايوس" فقتله إثر نشوب معركة بين الرجلين. ثم وجد "أوديب" نفسه في مواجهة حيوان مخيف عبارة عن وحش أنثوي - اسمه "سفينجه" - ذي جناحين ومخالب تؤدي إلى موت من لا يتمكنون من حل اللغز الذي تطرحه

حول جوهر الإنسان، فتساله: "من هو ذلك الذي يسير أولا على اربع أرجل، ثم على اثنتين، ثم على ثلاث؟"، وهو السؤال الذي قدم له "أوديب" الإجابة الصحيحة فكافاه "كريون"، الوصي على عرش "طيبة"، بمنح يد شقيقته "جوكاست" له، وأنجب منها أربعة أطفال.

تمر الأيام، وينهمر الطاعون على "طيبة" وتصاحبه المجاعة؛ فيتساءل "أوديب"، ذلك الملك الحكيم، عن سبب تلك النكبة إلى أن يعلم الحقيقة فينتهي به الأمر إلى أن يفقع عينيه، وتقوم "جوكاست" بالانتحار.

- لو فهمت جيدًا، هل معنى هذه القصة أن "أوديب" كان فاقدًا للإدراك بقصته الخاصة؛ فهل هو غير واعٍ؟

لا، إنه ليس غير واعٍ، وإنما هو فريسة لقدره.

- أليس مذنبًا؟

لا ليس مذنبًا بسبب مقتل والده أو ممارسة زواج المحارم مع والدته؛ ولكن عقابه يأتي جزئيًا من قدره لأنه لم يكن مقدرًا له أن يولد؛ ومن ناحية جاء عقابه على أيدي الآلهة حيث إنه تحدى سلطتهم من خلال حله للغز؛ فهو معاقب إذن لخطأ لم يرتكبه، وقدره - أو اللاوعي لديه - هو الذي يتصرف بدلا منه.

- وماذا عن الروح؟

هناك عدد من الأوجه للروح عند الإغريق، ولكن أهم جانبين هما: جانب مليء بالدم والغضب يطلقون عليه "ثوموس" (thumos) أي الروح-الدم، بمعنى ما يدفع الإنسان على الفعل، والرغبة، وإقامة العلاقات مع العالم الخارجي، والجانب الآخر الذي يسمونه "بسيكي" (psyche)، اي الروح-النفس المرتبطة بالنوم، والموت، والضعف، وكذلك بالخلود والحياة الأبدية.

كان "أفلاطون" يؤكد أن الروح تتكون من ثلاثة أجزاء: الخلود، والذكرى، والمعرفة؛ وبهذا المعنى الأفلاطوني، فالروح أبدية لأنها موجودة دون الجسد الذي يمثل غلافًا مؤقتًا خلال الحياة. وبالتالي، تحتفظ الروح بذكرى كل المعاش، كما أنها أشبه بطاولة خاوية مصنوعة من الشمع تُحفر عليها جميع الأفكار والمشاعر والتصورات. الأجزاء الثلاثة مترابطة، وحينما تخرج الروح من الجسد، فإنما تتخطى العالم الحسّي لتسمو نحو المعرفة، والتذكر هو معرفة من نحن، والتعلم هو التحديث لسلطة الذكاء التي نمتلكها.

- إذن، هل يمكن القول إن اللاوعي بالأمس واليوم هو في الوقت نفسه الله، والقدر، والروح، والرغبة، والمخزون الذي يجمع الذكريات ويسمح لنا بفهم من نحن وماذا نفعل؟

يمكن أن نعبر عن الأمر كذلك، ولكن هناك احتياج إلى مزيد من

الشرح؛ نعم، اللاوعي هو قدرنا؛ واليوم بالنسبة إليّ وإليكِ- وكذلك بالنسبة إلى المواطنين في البلدان الديمقراطية والعلمانية - لم يعد القدر هو الله، وإنما هو تاريخ الإنسانية؛ هو قدر بالمعنى الإغريقي ولكن بدون الوسيط الروحي الذي يتنبأ وبدون الآلهة. إنه ما يعمل دون علمنا حتى يرغب الإنسان في شيء أو يقع في حب احد. أخيرًا، اللاوعي هو مكان للتذكر، متحف أو أثر تزوره لتتعرف على الماضي وعلى تاريخ من أحببتهم؛ إنه مكان يحتفظ بوثائق حياتك، أشبه قليلا بالذاكرة الصلبة الموجودة في حاسوبك الآلي؛ وهو أيضًا حالة نفسية.

- ماذا تعنين بحالة نفسية؟

يستعمل اليوم خبراء علم النفس هذا التعبير الذي تعود أصوله اللغوية إلى كلمة psyche، أي الروح-النفس، وهو يشير إلى ما هو واعٍ وما هو غير واعٍ؛ وجدير بالذكر أن اسم Psyche يشير إلى امرأة في الأساطير الإغريقية واللاتينية.

فهي امرأة كانت بقدر فائق من الجمال مما أثار غيرة "أفروديت" (فينوس) إلهة الحب "إيروس" (eros)؛ فلكي تعاقبها، أرسلت وراءها ابنها "كيوبيد" (إله الحب) المحمل بالسهام والمسلح بالأجنحة، وكان من المفترض أن يجعلها تقع في غرام وحش، ولكنه ما أن رآها حتى وقع في أسر مفاتنها وأصبح عشيقا لها بشرط ألا تنظر إليه أبدًا،

فكانا يلتقيان في الظلام؛ إلا أن Psyche كانت كائنًا منطقيًا، لديها فضول كبير في المعرفة، فشاهدت "كيوبيد" الجميل أثناء نومه على ضوء مصباح؛ كانت النتيجة أن عاقبتها الآلهة بان أجبرتها على القيام بعدد من المهام الفظيعة حتى وقعت في غيبوبة أشبه بالموت. إلا أن القصة تنتهي نهاية سعيدة، حيث تزوجت "كيوبيد" وأصبحت من الخالدين. وبذلك ستكون قد أمضت حياتها متحملة المصاعب حتى تحصل أخيرًا على الحب والأبدية.

- هل كلمة Psyche هي التي ولدت كلمة psychique اي نفسي؟ وما الصلة مع اللاوعي؟

هذه القصة معناها أن الروح كطائر الليل، يصحو في المساء مثل اللاوعي الذي يلح علينا بطريقة أقوى أثناء النوم من خلال الأحلام.

الحالة النفسية عبارة عن مجمع كلّي يتكون من الوعي واللاوعي في الوقت ذاته، وهو يحكي تاريخ الحياة الذاتية كاملا، سواء في الجزء المتخفي من تلك الحياة أو في جانبها المرئي: الحب، الرغبة، النوم، الذاكرة، العقل، والأسلاف؛ ويمكن رؤية صورة لها في قصة Psyche من خلال مواجهتها مع رغباتها ومع الآلهة؛ إنها قصتك وقصتنا جميعًا.

- ما العقل؟

يختلف العقل عن الروح وعن الحالة النفسية؛ فالعقل بالأحرى عبارة عن مجموعة من القدرات المعنوية - الحدس أو الإدراك - التي تسمح لنا بالتفكير؛ والعقل في تضاد مع الجسد ولكنه يتضمن أنشطة واعية وغير واعية؛ كما أن العقل منطقي على عكس اللاوعي.

- ولكن، كيف نصل إلى اللاوعي الخاص بنا؟

يكون ذلك من خلال الاستنباط، أي الاستماع إلى النفس، وملاحظة ردود فعلنا أو القيام باختبار ذاتي. تعود فكرة الاعتراف أو سرد الأمور المؤلمة أو ما عايشناه إلى زمن بعيد؛ لقد قام كُتاب وفنانون كثيرون بنشر اعترافاتهم، منهم "سان أوجستان"، و"مونتيني"، و"روسو"؛ فالكلام عن النفس يسمح بتسريع عملية الوصول إلى اللاوعي.

- ما الذي حل اليوم محل الله أو الآلهة؟

من ناحية، قامت العلوم بهذا الدور لأنها مبنية على المعرفة الموضوعية للواقع والطبيعة والعقل؛ ومن ناحية أخرى يوجد الإيمان الذي يستند إلى الرأي أو التبصر؛ فالمستبصرون وعلماء التنجيم يعتقدون أنهم أكثر بصيرة من رجال العلم لأنهم متأكدون أنهم يرون ما هو مختف وراء المظاهر؛ ولكنك كما ترى، لا يتم حقيقة استبدال الله أو الآلهة وإنما يتم النظر إليهم بطريقة مختلفة.

- *من هو المستبصر؟*

كثيرًا ما يحمل المستبصرون أسماء غريبة؛ ولكنهم ليسوا ورثة متنبئي العصور القديمة، ولا هم معالجون أو أشبه بـ"شامان" المجتمعات البدائية. كما أنهم ليسوا كهنة لأنهم لا يدافعون عن دين. إنهم ينظرون إلى أنفسهم باعتبارهم خارج كل شيء وهم يعارضون ما يطلقون عليه بالمعارف الرسمية، أي السياسة، والديانات القائمة، وعلم النفس، والطب، والتعليم الذي تنشره المدارس والجامعات. وهم يحظون بنجاح كبير في الأوساط التي يتحركون فيها بفضل الشبكة الإلكترونية.

- *وماذا يفعلون؟*

إنهم يستقبلون في عياداتهم أهالي يخشون على حالة أطفالهم، ورجال أعمال قلقين من الإفلاس، وأشخاصًا دمرتهم قصص حب فاشلة، وآخرين يخافون من نهاية العالم، أو من الكوارث الطبيعية أو الشياطين.

وهم ينبئون بالمستقبل من خلال أوراق اللعب والكور البلورية، ويدّعون أن وضع الكواكب يقدم معلومات حول مستقبلنا؛ والبعض منهم يعتقد أنه يلاحظ أشياء كثيرة في اللاوعي لديك وذلك من خلال النظر في عينيك، وخطوط يدك، أو في المرآة، أو إحدى البحيرات، أو على جلد ضفدع؛ وهم يحيطون أنفسهم بتماثيل

صغيرة، وعصيان معطرة، وتمائم مقدســـة أو أشياء غريبة أخرى حصلوا عليها من بائعي السلع المستهلكة.

أحيانًا ما يرتدون وجه الفلاسفة الكبار لشرح أن هناك قوى خفية تدير العالم؛ كما يتخيلون أن هناك لاوعي كونيًا مليئًا بالرموز والأرقام هو الذي يحكمنا. وكثيرًا ما يعتقدون أنهم رسل منوط بهم توصيل تلك الرموز إلى الإنسان؛ كما تكثر الإشارة إليهم باعتبارهم دجالين حيث إنهم لا يترددون في استغلال سذاجة الناس.

- *هل هم خطرون؟*

لقد تم اعتبارهم خطرين في فترة ما: ففي عام 1184 حكمت عليهم محاكم التفتيش بالموت حرقا على أساس أنهم هراطقة، كما منعتهم من مزاولة هوايتهم. أما الملك "لويس الرابع عشر"، فقد قام باضطهادهم هو الآخر لأنه كان يرى فيهم تجسيدًا لسلطة شيطانية تتعارض مع السلطة الملكية العظمى. وأخيرًا، أشار إليهم "نابليون" - المنظم الكبير للطب، والعقل، والعلوم، والدولة العصرية - في قانونه الشهير للعقوبات. فقد حكم عليهم بدفع غرامة لو استمروا في تقاضي الأموال مقابل تقديم النبوءة. وكما ترى، فإنهم منبوذون سواء من الأديان أو من قبل المدافعين عن العلم. ومع ذلك، ورغم كل القوانين، فهم ما زالوا في ازدهار؛ يتم اليوم احتمالهم ولكن بشرط ألا يدعوا التدخل لعلاج أو شفاء الأمراض؛ فيما عدا ذلك،

يمكنهم أن يتفحصوا عقلك الباطن دون التعرض لمشاكل من خلال النجوم أو التنبؤ لك بكارثة لو عصيت نصائحهم.

- ولكن، هل هناك دجالون في صفوف من يدعون تفسير كل شيء بطريقة منطقية من خلال العلم؟

بكل تأكيد! هم يضمون كل الذين يؤكدون أنهم يرون اللاوعي، وقادرون على قياسه، ووزنه، ووصفه، ومشاهدة طريقة عمله من خلال المجهر وكأنه شيء يمكن القبض عليه من ذيله، أو قرونه، أو قدمه؛ إنه الجدل نفسه الذي يحمل روح الأمس.

- ما هذا الجدل الذي تشيرين إليه؟

في عام 1907، قام طبيب أمريكي، مهووس بفكرة العثور على الروح داخل الجسد لإثبات وجوده، فقام بقياس وزن ستة من مرضاه على حافة الموت ثم بعد وفاتهم؛ ولما لاحظ فرقًا ضئيلًا غير مبرر في الموازين، استنتج أن هذا الفرق قد يعود إلى وزن الروح وهي تهرب من الجسد. وحتى يتأكد من صحة استنتاجاته، أعاد التجربة مع 15 كلبًا ولم يلاحظ معهم أي فرق، فظن أنه عثر على الدليل أن الإنسان وحده هو الذي يحمل روحًا.

- هذا الموضوع مضحك للغاية!

قد يضحكنا هذا المنطق، ولكنه كثيرًا ما يحدث؛ فعلى الرغم من

كون هذا العالم الأمريكي دجالًا، لم يتم اعتباره كذلك، بل أُخذت مزاعمه أحيانًا محمل الجد على الرغم من أن علمه لا يمت بصلة إلى العلم، كما هو الحال -تمامًا- بالنسبة للكور البلورية.

- منذ أيام، سمعت صحفيًا يقول في التليفزيون إننا حينما ننظر إلى الإعلانات، فإنما نتأثر بالرسائل "الدون وعيية" التي تتوجه مباشرة إلى اللاوعي؛ فما هي الرسائل "الدون وعيية"؟

بالفعل، تخيل خبراء الاتصال أنه لو تم إدماج صور لا يمكن أن يدركها وعينا في الأفلام، اي صور "دون وعيية" قد يكون لها تأثير دون إرادتنا على سلوكنا. فعلى سبيل المثال، أكد أحد صانعي الدعاية - بدون الاستناد إلى اي دليل - أنه لو مرت بطريقة غير مدركة صور تحمل شعار "اشربوا كوكا كولا" سوف تزداد مبيعات هذا المشروب بطريقة لافتة للنظر؛ وفي عام 2000، قام "جورج بوش" أثناء معركته الانتخابية بعرض صور لخصمه حفرت بعدها مباشرة كلمة "فار" ظنًا منه أنها وسيلة للفوز عليه.

- ولكن، ماذا حدث لمواجهة ذلك؟

لقد تم تحريم الرسائل الدون وعيية على الرغم من أنه لم يوجد أي دليل على فاعليتها؛ إلا أن فكرة الكفاءة المحتملة لهذا التأثير الخفي كانت قد نشرت الذعر في صفوف المشاهدين الذين ظنوا أن هذه الرسائل قادرة على تحويل أي شخص طبيعي إلى مجرم

او إلى مريض نفسي. تلك القناعة بقدرة الرسائل الدون وعيية تحمل الطبيعة نفسها الخاصة بالمستبصرين الذين لا يدعون التمسح بالعلم.

- إذن، ما هو الدون وعيي؟

إنه كل ما يدركه اللاوعي مباشرة، ولكننا لسنا بحاجة إلى الخوف منه أو إخضاعه للقواعد.

- هل هناك طريقة أخرى للوصول إلى اللاوعي تكون منطقية دون أن تقترب من التنبؤات أو ما على شاكلتها من العلوم الداعية للسخرية؟

بالقطع نعم؛ إنها الطرق التي يتبعها الفلاسفة، والكتاب، والأطباء النفسيون، وجميع المفكرين الذين لا يعتبرون أن البشر عبارة عن قيمة زائدة غير مفيدة، أو أن وجودهم الذاتي ينحصر في أفكار مسبقة أو خزعبلات، أو أن هذا الوجود يستند إلى حسابات ليس لها أساس. فهم يعتقدون أن الاعترافات والقصص لها أهمية في فهم من نحن، وهم محقون في ذلك.



الفصل الرابع

السفر في قلب الحلم

- حلمت الليلة الماضية أنني كنت على متن باخرة ضخمة عبارة عن نسر يرتدي معطفًا كبيرًا عليه رسومات ويمسك قبعة بمنقاره؛ وقد اصطدم بجبل جليدي مغمور في الماء. كان الوقت ليلًا وأنا أكاد أن أغرق، إلا أن النسر تحول إلى قطعة خشب تطفو على البحر لأتشبث بها وطار جزء من النسر بينما بقي الجزء الآخر معي حتى لا أغرق؛ فما معنى ذلك؟

هذا الحلم يستعيد عناصر عديدة لحوارنا؛ فقد قارنت اللاوعي بطائر الليل وأنت حولته إلى نسر؛ كما كنت قد أشرت في حديثي معك إلى جبل الجليد، ذلك البيت الأبيض الذي يكون جزؤه الأكثر خطورة مخفيًا تحت الماء؛ ثم قارنت اللاوعي بمركب تائه وسط الأمواج. كذلك حدثتك عن "ديكارت" وعن الأنا المنقسمة إلى

جزءين؛ فأنت تحلم بنصف نسر يسعفك من الغرق وهو يحميك بينما يذهب النصف الآخر طائرًا بعيدًا عنك.

هذا معناه أن كل ما تحدثنا عنه قد انطبع على ذاكرتك على هيئة صور ذات دلالة قوية؛ وفي جميع الأحوال، فقد فهمت أن اللاوعي هو في الوقت نفسه شيء غامض، وليلي، ومخيف وإنه كذلك حميمي وخيّر وكريم. فمن الممكن أن ندرسه حتى نعلم أنه موجود دون الخوف من الغرق، ودون الحاجة إلى قياسه أو تحديد وزنه.

- لقد انتابني هذا الحلم بعد أن شاهدت في التلفاز فيلم عظيم حول غرق الباخرة "تيتانيك"؛ وكنت أشعر وكأنني أشاهد حلمًا بينما كنت جالسًا وحيدًا بالمنزل.

إن ما شاهدته هو في نفس الحين حلم، وقصة حب رومانسية، وواقع تم إعادة بنائه بفضل سحر السينما، وأخيرًا ملحمة حول قوة الإنسان وإخفاقاته انتهت بمشهد كابوسي، ثم سمعت في الفيلم كلمة "فرويد".

- ماذا تعنين؟

لقد تم اقتباس الفيلم من حادثة حقيقية وقعت في أبريل 1912 وأثرت على جميع الأذهان، اي: غرق أجمل باخرة ما يسمى بالفترة الذهبية (belle epoque)؛ ويعود اسم الباخرة إلى الآلهة

الضخام للإغريق الـ"تيتـــان" (titans) الذين رغم قوتهم تم قهرهم بواســـطة آلهة أكثر دهاء وهـــم الأولمبيـــون (olympiens) الذين يرمـــزون إلى كل القوة لمرحلة اتســـمت بتطور الملاحة البحرية؛ إذ أن باخرة تيتانيك تأخـــذ على متنها في الفيلم خلال رحلتها على المحيط الأطلســـي 2500 شـــخص؛ ما بين رجال ونســـاء وأطفال ينتمون إلى أربعين جنســـية وإلى طبقات اجتماعية متنوعة تتراوح ما بين الأكثر ثراء إلى الأكثر فقرًا. من ضمن المسافرين، نجد كبار البرجوازيـــن الأنجلو-أمريكيين المتزمتيـــن (ذوي الميول الداعية إلى التمســـك الصارم بتعاليم الدين والأخلاق الفاضلة)، المعجبين بأنفســـهم والمنغمسين في سخريتهم وفي جهلهم. إنهم يعيشون على أوهام متعلقة بقدرهم، ويقوم اللاوعي لديهم بالتلاعب بهم. فالسفينة ليســـت كما يظنون إذ أن دفتها لا تتناسب مع وزنها، كما أنها تفتقد العدد الكافي من مراكب الإنقاذ؛ الباخرة إذن عبارة عن مارد يعاني كثيـــرًا من العيوب، قـــد لا تكون ظاهرة بالنســـبة لبعض الذين لا يرغبون فـــي رؤيتها، ومُدركة للبعض الآخر القادر على المغامرة بغض النظر عن المظاهر الخادعة.

- هل هذا ما نسميه الكابوس؟

نعم، فالباخرة تسير بسرعة مبالغ فيها، وتصطدم أثناء الليل بجبل جليدي فتغرق تاركة وراءها ألف وخمسمائة راكب غريق.

بعد مرور سنتين على هذا الحادث، سوف يغرق المجتمع الأوروبي المتألق والمتعجرف بدوره في حرب سوف يلقى جدك حتفه فيها إلى جانب آلاف الجنود والمدنيين ضحايا الصراع القاتل الذي سوف تقف فيه وجهًا لوجه أكثر الأمم الأوروبية تمدينًا. لقد احتفلنا في العام الماضي بمئوية هذه الحرب التي ذهب عنا الآن آخر شهودها.

- هل تلمحين إلى أن هذا الحلم تختلط فيه عديد من الذكريات: مناقشاتنا حول اللاوعي، والكهنة، والمستبصرين، والآلهة، والأطباء النفسيين مع ذكرى جدي الذي كان يمكن أن يكون موجودًا على متن الباخرة تيتانيك؟

بالفعل، كان يمكن أن يكون جدك من ركاب تيتانيك على غرار والدي الذي حدثتك عنه كثيرًا والذي ظل على قيد الحياة بعد الحرب العالمية الكبرى. لقد اطلعتك على بعض صوره في الخنادق، ولتتذكر أننا شاهدنا معًا فيلم أثر فيك كثيرًا يحمل عنوان "الوهم الكبير" (la grande illusion)؛ وقلت لي آنذاك: إن هذا الفيلم أشبه بالحلم وإن الممثل "جان جابان" يفكرك بجدك بينما يذكرك الممثل "بيير فيرناي" بوالدي.

- هذا صحيح؛ فهل هذا الفيلم شكل من أشكال النبوءة؟

لا ينبئ الحلم بشـــيء، وإنما يعبــر عن أمر ينتمي إلى اللاوعي لدى كل إنســان، ولكنه يخلط بين الأزمنة، وبين الموتى والأحياء، والأشــياء والحيوانات، والســماء والأرض والبحــر. فالحلم يقدم لنا أســاطير لا توجد في الواقع، ونحن نشــاهد في الحلم وحوشًا، وملائكةً، وبشــرًا عيونهم محل أقدامهــم؛ ومناظر طبيعية ترتدي قبعات؛ وأشجارًا تنمو عليها المقصات؛ ومنخار العصافير مغروسًا في جلد الأفيال؛ وإنسانًا آليا شبه البشر؛ وآدميين برؤوس سمك.

- وما معنى حلمي؟

فيما يتعلق بحلمك حول النسر الذي يساعدك على الإفلات من الغرق، فهو يعمل على التعبير عن خوفك وعن وسيلة تخطي هذا الخوف واستئناسه؛ إنه في الوقت نفسه الخوف والعلاج للخوف. أما النسر، فهو يرمز إلى جدك ووالدي، فكان كلاهما يرتدي القبعات والمعاطف أثناء الحرب الكبرى، ومات أحدهما بينما بقي الآخر، بالضبط كما حدث في فيلم "الوهم الكبير".

- هل يحلم جميع الناس؟

جميع البشر يحلمون، وقد أضفت الشعوب صفات على الأحلام، فهناك الأحلام الحميدة والكوابيس. يعد الحلم ظاهرة عالمية تحدث أثناء النوم؛ وهو يتكون من سلسلة من الصور خارج أي سيطرة؛ فلما شاهدت فيلم "تيتانيك" تأثرت - مثلما حدث معي - بصور لفيلم

أشبه إلى الحلم كما هي أشبه إلى الحقيقة؛ ويمكن القول إن السينما عبارة عن آلة لتأليف الأحلام.

- *هل ينتمي جزء من الأحلام إلى الحقيقة؟*

إنها بالفعل حقيقة الشخص النائم؛ فعلى مر آلاف السنين وامتداد جميع المجتمعات، ظن الناس أن الأحلام عبارة عن نبوءة أو فأل شؤم غالبًا ما ينبئ بالكوارث والمآسي، وكثيرًا ما كانت تستعمل كلمة songe (وهي حالة من الحلم تحمل أحيانًا معنى النبوءة)، كما مورس فن تفسير الأحلام باعتبارها رسائل موجهة من الرب أو الآلهة. ففي اليهودية والمسيحية، يتوجه الرب للبشر من خلال توجيه الرسائل.

- *أرجو أن تعطيني بعض الأمثلة..*

هناك أمثلة لا نهائية لقصص الأحلام والنبوءة؛ ولكنني سأحكي لك قصة الملك "نبوخذنصر" Nabuchodonosor- وهو أحد شخصيات التوراة - الذي كان وراء ولادة التعبير الشائع حول "العملاق ذو الأرجل الطينية"؛ فأثناء نومه منذ ما يزيد علي ألفين و600 عام، رأى الملك تمثالا يتكون من معادن متنوعة؛ فالرأس من الذهب، والجذع من الفضة، والبطن والأفخاذ من البرونز، والسيقان من الحديد، بينما الأقدام نصفها من الحديد والنصف الآخر من الطين. عندئذ، سقط حجر صغير من الجبل ليختبئ تحت أقدام التمثال، ثم

أخذ الحجر يملأ العالم بأكمله. استدعى الملك المستبصرين الذين عجزوا عن تفسير الحلم، فحكم عليهم بالموت؛ فلما سمع "النبي دانيال" عن الأمر توجه إلى الله الذي فسر له أثناء النوم معنى هذا الحلم.

- *وما الذي فعله "النبي دانيال"؟*

لقد شرح "النبي دانيال" للملك أن منبئيه لا يملكون القدرة على تفسير الحلم، وأن الله وحده هو الذي يمتلك الحقيقة، وقال للملك: "أنت ملك الملوك، أي الرأس الذهبية للتمثال، فأنت رجل قوي وتحظى بالاحترام؛ ولكن، سوف تأتي بعدك إمبراطوريات أخرى في تدهورٍ متتالٍ حتى تنهار الإمبراطورية الأخيرة لتفسح المكان لمملكة الرب التي يرمز لها الحجر الذي تحول إلى جبل".

- *ولكن أليست هذه القصة شبيهة بقصة التيتانيك؟*

أنت على حق، فهي نبوءة تعلن عن تدهور الإمبراطوريات وقدوم مملكة جديدة أكثر عدلا وقادرة على تدمير من كانوا يظنون عن أنفسهم أنهم أقوى أقوياء العالم. أنت لست بحاجة إلى الإيمان لتستوعب أسطورة "العملاق ذو الأرجل الطينية"؛ فهي معناها -على غرار قصة التيتانيك وعلى غرار تاريخ جميع البشر - أنك لو بالغت في تصورك لقوتك، سرعان ما تقع في فخ المبالغة وفقدان البصيرة للواقع؛ فيحدث أن تهزم بما هو أقوى من الإمبراطورية

التي تملكها ســواء كانت عبــارة عن فكرة، أو تطلــع ما قد يبدو ظاهريًا بنفس ضعف الطين. وباختصار، "يوتوبيا" أو حلم مستحيل أصبح واقعًا.

- هل هناك فرق بين الحلم، وشبه الحلم؟

شبه الحلم عبارة عن عرض يدور أمامك خلال الليل، اي أنه ليلي محض ويحدث خلال النوم؛ وهناك تعارض بين الحياة الليلية والحياة النهارية التي نحياها أثناء يقظتنا، ولكنه يمكن اعتباره امتدادًا للحياة الحقيقية.

- إلى ما تفكرين؟

لقد شاهدت معي مسرحية الشاعر الكبير "وليم شكسبير" بعنوان "حلــم ليلة صيف" التي ألفها منذ خمســمائة عــام حينما بدأ الناس يشكّون في القدرة الإلهية العليا. هذه المسرحية تقدم لنا خمسة أزواج من المحبين يتصارعون فيما بينهم: هناك ملك وملكة النهار، وملك وملكة الليل أي الجنيات الخفية والســحرية التي تعيش في الغابات، ثم شــابان وصبيتان غير قادرين على حب بعضهم البعض، ويزيد عليهم المهرج الذي يتحول إلى حمار. هنا تسمح الحياة الليلية بمحو الحدود بين ما هو بشــري وما هو فوق الطبيعة، وبالتالي القضاء على الصراعات غير المفيدة حتى يتمكن كل إنســان من حب من يريد.

ويتحول الحلم في أحلام اليقظة إلى نشيد يشدو للحياة الإنسانية، والسعادة، والحرية والرغبة الشهوانية؛ وهو لا يمت بصلة إلى النبوءة ولا يتحكم أي إله في مملكة الليل تلك. يسمح "حلم ليلة صيف" بتحقيق الحلم، أي بتحقيق رغبة عاطفية وجنسية ممنوعة أثناء النهار ويتم ترحيلها إلى اللاوعي.

- لقد وجدت على الشبكة الإلكترونية عشرات المواقع التي تتحدث عن تصنيف الأحلام، كما توجد قواميس متعددة حول الأحلام؛ فكيف يمكن أن نتفادى الوقوع في متاهة؟

في الواقع أن جميع هذه القواميس والأعمال المبسطة الأخرى مقتبسة من كتاب مسلي للغاية يمكن أن تقرأه ببساطة واسمه "مفتاح الأحلام" (Oneirokritika)؛ لقد قام بتأليف هذا الكتاب أحد الفلاسفة اليونانيين في ظل الإمبراطورية الرومانية منذ ألف و800 سنة، وكان اسمه "أرتيميدور دي دالديس"؛ كان هذا الفيلسوف من كبار الرحالة، وقد زار جميع بلدان حوض البحر المتوسط واتبع فيها أسلوب المحقق أو الصحفي بهدف تجميع كمية من الأحلام لدى الشعوب والمتنبئين الذين يلقاهم في طريقه. كما أنه اطلع على كل ما في المكتبات وقرأ مئات الكتب حول الأحلام.

لم أسمع قط عن هذا الأرتيميدور..

ومع ذلك، فحينما تتحدث عن الأحلام، فأنت مثل "أرتيميدور"؛

لقد قام باستكشاف فعلي لكل الإنتاج المتعلق بتفسير الأحلام والتي نجد صداها اليوم في الأعمال التي تتناول كتاب "مفتاح الأحلام" ونجدها بسهولة على الشبكة الإلكترونية. فقد طور فهرسًا وألف قوائم، وكان في الأساس هو الأول الذي فرق ما بين الأحلام التي تمثل نبوءات والأحلام التي تعبر عن رغبات شخصية. كما كان الأول الذي أسس لفكرة أن هناك فروقًا بين من ينتابهم نفس الحلم. فهو يشير إلى تأثير الحياة الشخصية، وظروف المولد، والأسرة، والحياة الجنسية، والموت، والعمل، والعلاقات بين الرجال والنساء، وبين الأهل وأطفالهم.

- ماذا كان الهدف من "مفتاح الأحلام"؟

كان للكتاب هدف تربوي ومغزى ثوري، إذ أن الغرض منه كان تبصير القراء المنتمين لجميع الأوساط الاجتماعية أنهم ليسوا بحاجة إلى مستبصرين أو منجمين لتفسير أحلامهم؛ فبفضل امتلاك تعلّم جاد مبني على التحري والخبرة، ومن خلال تصنيفات منطقية، يمكنهم فهم أحلامهم بأنفسهم والتغلب على المخاوف التي تولدها لديهم، واستيعاب واقع حياتهم المزدوجة، أي الحياة الليلية والحياة النهارية.

- ولكنك قلت إن الناس كثيرًا ما يستشيرون اليوم المتنبئين والدجالين؛ فهل معنى هذا أنهم يخشون - كما كان الأمر في

الماضي - أن تتحقق النبوءات ذات الطابع الشؤم؟

بالفعل، كان يسعى "أرتيميدور" - كما فعل كثير من الفلاسفة والتربويين - إلى استئناس المخاوف؛ وقد كان لكتابه صدى كبير.

- ولكن، هل يمكن استئناس المخاوف؟

ليس حقيقة، فما زلنا اليوم نؤمن ببعض الخرافات حتى وإن كنا لم نعد نصدق النبوءات أو وسائل استئناسها وأصبحنا نتحلى بالمنطق.

على سبيل المثال، مهما كنا مدركين أن الطائرة التي حلت محل المركب من آلمن طرق المواصلات، ومهما قرأنا من مقالات تسير في نفس الاتجاه، ما زلنا نشعر بالخوف من السقوط من السماء؛ ويتفاقم هذا الخوف مع المسافات الطويلة أو حينما تحل الكوارث؛ فنحن نحتفظ بتيتانيك في أذهاننا ونحتاج إلى "أرتيميدور" لحمايتنا؛ فهذا الأرتيميدور اشبه بالنسر الذي رأيته في حلمك.

- لقد قلتإنني سمعتُ في الفيلم اسم "فرويد"، ولكنني لا أتذكر ذلك.

فلنشاهد الفيلم مرة أخرى، وخاصة البداية.

الفصل الخامس

طبيب من فيينا

- لقد أعدت مشاهدة مشهد فيلم "تيتانيك" لما أشرت إليه بخصوص "فرويد"؛ فأثناء العشاء تسخر "روز" - بطلة الفيلم - من رئيس الشركة الملاحية الذي يتباهى بحجم باخرته، وفخامتها وقوتها؛ وهي تقول له: "هل تعرف دكتور "فرويد"؟ إذ أن أفكاره حول التساؤلات الذكورية المتعلقة بالقدرة والقوة قد تهمك"، ويرد عليها: "من هو هذا الـ"فلويد"؟ أهو من الركاب؟"؛ فما معنى هذا الكلام؟

"روز" ثائرة ضد كبار الأثرياء المتعجرفين من ركاب الباخرة؛ فهم أغبياء، ويحتقرون الفكر، والفن، والرسم المعاصر مثل فن "بيكاسو" و"مونيه"؛ تكره "روز" هؤلاء ولكنها تنتمي في الوقت نفسه إلى أسرة أرستقراطية مفلسة. أما والدتها، تلك الأرملة الجافة، ضحية أوضاعها كامرأة منغلقة في عالم من الأحكام المسبقة، فهي

تجبرها على التزوج من أحد هؤلاء الرجال للحفاظ على مركزها الاجتماعي. تتمرد "روز" وتحاول الانتحار، ولكن ينقذها فنان شاب من الطبقة البسيطة، يسافر هو الآخر على ظهر الباخرة في الدرجة الثالثة بصحبة مهاجرين يحلمون بالوصول إلى أمريكا التي كانت تمثل آنذاك الحلم الجماعي لأوروبا، أي حلم حياة أخرى تتجسد في فن السينما الذي تقدمه هوليوود. إلا أن "روز" تعلم أنها لن تستطيع الإفلات من هذا الزواج المكروه.

وبالتالي، فمحكوم عليها بنوع من الثورة البائسة: ثورة فتيات جيلها اللاتي يعجزن عن التغلب على قبضة الوسط الذي ينتمين إليه. وتشعر "روز" بقهر هؤلاء الرجال الذين لا يطاقون، ويعتقدون أنهم يمتلكون كل القدرة.

- ما صلة هذا بـ"فرويد"؟

"روز" تعلم عن وجود "سيجموند فرويد"، ذلك الطبيب اليهودي النمساوي المشهور على مستوى العالم؛ وكان "فرويد" قد عبر المحيط الأطلنطي قبلها بأربع سنوات حينما كان يبلغ الثالثة والخمسين، وذلك على متن باخرة أخرى باسم "جورج واشنطن". وكما شاهدت، تقوم "روز" أثناء العشاء الفاخر بإطلاق اسم "فرويد" في مواجهة ذلك الغبي الذي لا يفهم ما تتحدث عنه.

- هل يعتبر اسم "فرويد" كالسحر بالنسبة إليها؟

نعم، فطالما عرفت "روز" أن "فرويد" استطاع أن يظفر بإعجاب أوروبا وأمريكا من خلال أفكاره الجديدة حول الحب، والجنس، والحلم، واللاوعي بينما كان يعالج فتيات يشبهونها، مضغوط عليهن بواسطة آباء ضعاف ويستوحون العجرفة من سلطتهم الأبوية إلى جانبهم أمهات مقهورات ومطيعات. قد نستنتج من هذا المشهد أنها ترغب في مقابلة "فرويد" حتى تقص عليه مآسيها وتتخلص من الإحباطات التي تفرضها عليها والدتها. تنتمي "روز" إلى تلك العينة من الفتيات التي يقال إنهن مصابات بالعصاب (مضطربات) واللاتي يتوقن إلى العيش بحرية، والتفتح في الحب، والعمل؛ أي أنهن يتطلعن إلى التحرر، وتدخين السجائر، والرقص، ولبس السراويل؛ ولكنهن غير قادرات على تحقيق ذلك لأن هناك قوة داخلية تدفعهن إلى الطاعة التي يمقتنها؛ ومن هنا ينشأ الصراع، والاضطراب والرغبة في الموت.

- هل "روز" مريضة؟

لا هي ليست كذلك، ولكن العالم الذي تحيا فيه مريض؛ تعلم "روز" أن "فرويد" يضع سيطرة الرجال على النساء موضع التساؤل، وهو ما يجعلها تسخر من رئيس الشركة الملاحية وهي تشير إلى القدرة المزعومة لباخرته مقارنة بالعضو الذكري؛ وعلى عكس هذا الرجل، تدرك "روز" المخاطر التي سوف تحدث في

حالة الغرق، فقد لاحظت غياب العدد الكافي من مراكب الإنقاذ.

- ماذا كان يحدث للأطفال في زمن "فرويد"؟

في هذا الزمن، كانوا يربون الأطفال على الرعب من الأمراض البشعة الناتجة عن الممارسات الجنسية؛ وكان "فرويد" يرفض التهديدات التي توجه إليهم بقطع عضوهم الذكري أو بخياطة مهبل الإناث؛ كان يرى أن يحق للأطفال - مثل البالغين - التمتع بحميمية وأن يتم إعلامهم بملذات الممارسات الجنسية إلى جانب المخاطر التي قد تنطوي عليها.

- ماذا يقول "فرويد" بالضبط بالنسبة للأطفال؟ ولماذا يتم الحكم عليه إلى الآن بأنه شخص فاضح؟

حينما نشر "فرويد" مؤلفه في عام 1905 حول الحياة الجنسية للأطفال، لم يستعمل العبارات العامية التي تحمل دلالات وقحة أو العبارات اللاتينية، بل إنه شرح بأسلوب بسيط وبكلمات دارجة ومفهومة كيف يتصور الأطفال الحياة الجنسية منذ سن الرابعة، أي في سن "جابور" اليوم. هذا الكلام ما زال صالحًا؛ صحيح أن الكتاب كان موجهًا إلى الكبار، ولكنه يزيل قدسية الفكرة أن الأطفال الصغار جهلاء بأجسادهم أو بالعلاقات الجنسية التي تدور بين الكبار. وفي رأيه أنه كان ينبغي تسمية الأعضاء التناسلية بأسمائها وكذلك الأفعال الحسّية مع عدم الفزع عند الإشارة إلى الممارسات

الجنسية. وكان يشرح ماذا يعنيه الأطفال حينما يستعملون كلمات خاصة بهم للحديث عن الفرق بين الأولاد والبنات أو بالطريقة التي أنجبهم بها آباؤهم.

- اعطني مثالا.

إنه يشرح أن عملية المصّ، وملامسة أجزاء الجسد، والبراز مصادر لذة بالنسبة للأطفال؛ وهو يؤكد أن الطفل قبل الرابعة إنسان قاسٍ يمارس جميع أنواع التجارب التي سوف يتخلى عنها عند البلوغ. كما يذهب إلى أن تلك الممارسات الشهوانية لا تعرف قوانين أو محرمات وأنها تتم بواسطة مجموعة متنوعة من الأشياء مثل العرائس القطنية، وقطع البلاستيك، وكور البلي، والأقمشة، وأجزاء من الجسم كالقدم أو اليد أو النهود.

- ولكن ماذا يريد أن يقوله هؤلاء الصغار الذين لا يكادون يتحدثون بعد؟

إنهم يصنعون لأنفسهم أشكالًا متنوعة من النظريات حول أصولهم، فهناك منهم من يعتقد أن المواليد يأتون من الشرج مثل البراز، أو أن الأمهات يلدون من السرة، أو أن الرجال والنساء يمارسون الجنس من الخلف مثل الكلاب والقطط، أو أن البذرة التي وضعت في بطن الأم هي البول، أو أن الرجال يستطيعون حمل الأطفال مثل النساء.

كما لاحظ "فرويد" أن الأطفال يقولون إنهم يريدون التزوج بأهلهم حينما يكبرون، وإن الأولاد يتطلعون إلى أخذ مكان آبائهم بينما البنات يريدون إحلال محل الأم، وأن جميعهم في حالة منافسة دائمة مع الكبار.

- ولكن هذا ليس صحيحًا، لم أفكر قط بهذه الطريقة..

بالقطع فكرت كذلك كما عبرت عنه، ولكنك لا تتذكر؛ استمع إلى من هم أصغر منك وسترى ما يقولون..

- هل تدعين أنني نسيتُ ما قلتُ وفكرتُ فيه حينما كنتُ أصغر سنًا؟

بكل تأكيد، وهذا من حسن الحظ؛ فلو تذكرنا كل شيء لأصبحنا مثل الإنسان الآلي أو الحاسوب. لابد أن ننسى أيضًا، كما يمكن القول إن هذا النسيان ضروري، فهو نوع من الكبت (الكبح) الذي نلقي بواسطته الأفكار والمشاعر والأحاسيس خارج الوعي؛ والواقع أن قصص الأطفال تلك عبارة عن كمية من التخيلات التي تعبر عن نفسها في ظروف خيالية يتم ترحيلها إلى اللاوعي.

- هل ما يتم كبته لا يعود أبدًا؟

على العكس، المكبوت قد يعود إلى الوعي في وقت ما، ويعبر عن نفسه من خلال علامات مثل زلة اللسان، أو الخطأ في أسماء

الأشخاص، أو استبدال كلمات بأخرى. وحتى أعطيك فكرة عن عودة المكبوت تلك، فلنتخيل رواية بوليسية يكون السيناريو فيها كالآتي: هناك مجرم يخفي جثة بدقة ويقوم بمحو جميع الآثار لإخفاء جريمته؛ ولكن تظهر تلك الآثار يومًا بالمصادفة وفي اللحظة التي لا يتوقعها على الإطلاق. تلك هي عودة المكبوت.

- إذن، جاء "فرويد" بما هو جديد بالنسبة لمعرفة اللاوعي مع كل هذه القصص حول الحياة الجنسية والكبت؟

وضع "فرويد" جانبًا كلًا من المتنبئين، والتحريات الميدانية، وتصنيفات الأطباء النفسيين، وكذلك فكرة اختلاف الأحلام وفقًا للبلدان والثقافات؛ وجعل من الحلم السبيل الأساسي لفهم اللاوعي عند الجميع؛ فهو يعتبره ظاهرة عالمية، موجودة لدى جميع البشر مهما كانت البلدان أو الطبقات الاجتماعية التي ينتمون إليها. والجديد أنه لا يفهم الأحلام كمعنى نهائي وإنما يطلب من الإنسان الذي يحلم أن يعلق بنفسه على أحلامه؛ فتبرز حقيقة الحلم من خلال الحوار بين صاحب الحلم ومن يستمع إليه.

- ولكن، كيف نصل إلى معرفة هذا اللاوعي؟

يتم ذلك من خلال تفسير الأحلام، ولكن هذا لا يكفي؛ فبالنسبة لكل إنسان، يكون الحلم عبارة عن تحقيق رغبة غير واعية قام صاحب الحلم بكبتها؛ فلو حلمت على سبيل المثال أن شخصًا تحبه

قد جاء إليك برأسه مقطوعة على طبق، قد يعني ذلك لا شعوريًا أنك ترغب في قطع رأسه، أو عضوه الجنسي، أو أي جزء آخر. كما قد يكون هناك معنى مختلف للحلم، مثل أنك تخشى أن ينفصل رأسك عن جسدك. من الممكن الوصول إلى تفسيرات متعددة ولا نهائية وفقا للطريقة التي سوف تحكي حلمك بنفسك؛ إلا أن الحلم لا ينبئ بشيء ولا يملي عليك سلوكك المستقبلي؛ إنه مجرد إشارة لما يدور في منطقة اللاوعي لديك.

- هل هناك منهجية لعدم الوقوع في تفسير خطأ؟

لا، لا توجد وسيلة غير قابلة للخطأ؛ لقد أطلق "فرويد" تسمية التحليل النفسي أو العلاج بالكلام على الطريقة التي تسمح باستكشاف اللاوعي؛ ولا تكتفي هذه المنهجية باستهداف غير الأصحاء فقط، وإنما تتوجه للجميع، ولكل من يريد أن يعرف ما يدور بداخله.

- ألا تعتقدين أن كل هذا الكلام قد عفى عليه الزمن؟ فاليوم، يشاهد الأطفال الأفلام الإباحية على الشبكة الإلكترونية وهم على علم بكل شيء؟

صحيح أن جميع الأمور قد تغيرت منذ زمن "فرويد"، وهذا تقدم مهم؛ ولكن لا تعني مشاهدة أفعال جنسية على التلفاز أننا نفهم كل ما نراه، وإلا لكانت الأمور في منتهى البساطة. هل تعتقد فعلا

أن مشاهدة تلك الأفلام تسمح لك بأن تصبح بطلا في مجال ممارسة الحب والجنس؟

- ولم لا؟

الأطفال - كما هو الحال بالنسبة للكبار أيضًا - يمكن أن يعلموا حقيقة ما دون أن يؤدي ذلك بالضرورة إلى فهمها أو استيعابها؛ صحيح أن الصور والمعلومات تغمرنا بغزارة في أيامنا هذه بواسطة أجهزة التابلت والمواقع الإلكترونية، وأنه يمكننا تعلم آلاف الأشياء؛ ولكن إذا أخفقنا عن الفرز، أو كنا نجهل حقيقة أنفسنا قد نغرق بكل سهولة؛ كما أن هناك ما نتعلمه بطريقة واعية وما نكبته في عقلنا الباطن.

- ما قصدك؟

تتذكر أنه لما كنت تبلغ خمس سنوات، مات صديقك الحميم في حادثة؛ وقد تم حينئذ إبلاغك بالأمر لأنه لا ينبغي الكذب على الأطفال أو إخفاء الأمور المهمة عنهم. وقد شعرت ببؤس شديد، وفهمت تمامًا ولكنك قلت بعد مرور شهر: "أنا أفهم أن "بنواه" مات ولكن لماذا لم يعد يأتي ليلعب معي في المنزل؟".

- لا أتذكر، ولكن ما معنى هذا؟

معناه أنه قد يبدو ظاهريًا أننا فهمنا كل شيء، ولكن دون أن

يكون عقلنا الباطن قد استوعب ما نعرفه بطريقة واعية؛ فقد يلتقط اللاوعي شيئًا مختلفًا عما نراه أو عما نفكر فيه بطريقة واعية. لقد شاهدت "كارين" فيلمًا إباحيًا مع زملائها في المدرسة، فلما سألتها عما فهمته، قالت أن كل ما شاهدته خطأ لأن العلاقات الجنسية الحقيقية هي أن ينام الناس سويا ويصنعون الأطفال.

- ما رأيك في معرض "العضو الجنسي" الذي يحكي قصص "تيتوف" و"نادية"؟

لم أزر هذا المعرض ولكن "إميل" يتحدث عنه كثيرًا؛ وقد وجده مضحكًا للغاية، خاصة تلك الآلة التي تضغط فيها على البدال التي تؤدي إلى انتصاب العضو الذي يصل إلى القذف.

- ولكن هذا الاختراع تسبب في فضيحة، كما تم جمع التوقيعات على عريضة لمنعه!

بكل تأكيد، فهناك دائمًا من الأهل من يعتقدون أن أطفالهم أغبياء؛ ولكن ما رأيك أنت؟

- لقد زرت المعرض مع أصدقائي الذين قضوا وقتًا ممتعًا، بينما كان مملًا بالنسبة لي؛ فليست هناك اي قصة والمسالة باسرها عبارة عن اختراعات تقنية.

هذا صحيح، ولكنك قلت لي أيضًا أنك استغربت لما قال لك

صديقك أن المعرض ساعده على استيعاب أنه لا ينبغي أن يخشى من تورم عضوه الجنسي؛ وقد كان مقتنعًا قبل هذه الزيارة أن الأطباء سيضطرون إلى قطع قدميه لو أخفق عن منع هذا التورم.

- *هذا كلام صحيح، وبناء عليه تحدثت معه. قولي لي الآن ما الفرق بين العقل الباطن الذي يتحدث عنه "فرويد" واللاوعي عند الأطباء النفسيين الذين تحدثنا عنهم فيما قبل؟*

لقد أطاح "فرويد" بفكرة أن العقل منقسم إلى جزءين كما كان يذهب إليه "ديكارت"؛ فمسح الفواصل بين العقل والجنان، وأبرز أننا في الوقت ذاته منطقيون وغير منطقيين وأن هناك امتدادا بين الجسد والروح.

فكل شخص فينا هو في الوقت نفسه بالغ وطفل، مريض وسليم، متوحش ومتمدين، مجرم وبطل، فنان وطاغية. فنحن غير منقسمين إلى قسمين، وإنما نحن في ذات الوقت الشيء ونقيضه؛ أي أن الإنسان ليس فاعلا ذا وجهين واضحي المعالم وإنما هو عبارة عن مفترق طرق تلتقي فيه كل أشكال القوى المتضاربة التي ينبغي السيطرة عليها. تسمى تلك القوى الدوافع (الحوافز) أي دفعات طاقة قادرة على تدميرنا أو على دفعنا نحو الحب، والفن، والجمال، والاختراع على حد سواء.

- *كيف يمكن أن نلخص إذن هذا اللاوعي؟*

إنه مخزن لماضينا منفصل عن حاضرنا، أمر مجهول أو مشهد لا يخضع لوعينا؛ فهو أشبه بخرائب "بومبيي"، وهي المدينة التي ابتلعتها البراكين وما زال البحث جاريًا عن ملامحها دون القدرة على تحديدها؛ فاللاوعي هو طفولتنا المحفورة في ذاكرتنا، إنه لحظة يتقابل فيها أبطال جميع الأزمنة والبلدان، إنه زمن غير وضعي لا ينتهي فيه أي أمر، فلا شيء يتقدم أو يتقهقر فيه.

- هل تعنين أن "فرويد" قد أحل اللاوعي مكان الوعي، أو استبدل الروح بالحافز والحلم بالرغبة في الحلم؟

نعم، وقد قام بإعادة ترتيب الأمور من خلال ابتكار كلمات تصف ما كان يطلق عليه الأقدمون كلمة psyche؛ فقسم الموضوع إلى ثلاث مناطق هي: الوعي المرادف للضمير، وما قبل الوعي وهو جزء لاواعي من الوعي، واللاوعي الذي يتشكل من الكبت ومما يخرج عن نطاق الوعي وما قبل الوعي.

- إذن، هل يسيطر اللاوعي على الكل؟

بالفعل، وقد أكد "فرويد" هذه السلطة التي يتمتع بها اللاوعي من خلال ثلاث كلمات: الـ"هو"، والـ"أنا العليا"، والـ"أنا"؛ فمحى بذلك فكرة "ديكارت" بأن الشخص منقسم إلى اثنين وقام بإدماج الروح ("أفلاطون") إلى اللاوعي.

الـ"هو" عبارة عن أكثر الأماكن الغامضة في الشخصية، أي اللاوعي بمعنى المجهول. أما الـ"أنا العليا"، فهي الضمير الأخلاقي الذي يسمو على الشخصية وهو ما تستمده من السلطة الأسرية، ومن المجتمع أو من المربين؛ فالـ"أنا العليا" هي التي تملي الممنوعات، وتقول لك ما يمكن أن تفعله وما لا يمكن. فعلى سبيل المثال، زنى المحارم من الممنوعات، وكذلك الجرائم والجنح، إلخ. أما الـ"أنا"، فهي أكثر الأجزاء وعيًا في هذا البنيان؛ وهو في حالة توازن بين العالم الخارجي (الواقع) والـ"هو"، والـ"أنا العليا"؛ أي أن الـ"أنا" كائن بائس عليه خدمة ثلاثة أسياد وكأنه مهرج في سيرك يسير على حبل ممدود وهو يمسك بمزلاج غير مأمون.

وبالإضافة، تحدث "فرويد" عن "أنا" مثالية، أي عن نموذج مرجعي مثالي؛ فحينما تنخرط في قضية للدفاع عن قيم، فإنك ترتبط بأمر مثالي مثل الخير، والعدل، أو على العكس الشر أو الجريمة؛ ويحدث ذلك سواء أردت أو لم ترد. وخلاصة القول أن "فرويد" أتاح لنا فرصة استيعاب أن هناك منطقًا يرتبط باللاوعي؛ وأنه المنطق الذي لا يخفق أبدًا حتى وإن لم ننجح في تفسيره؛ فقام "فرويد" بتحويل القدر إلى منطق لا يمكن لأحد الفكاك منه.

- ما المنطق؟

إنه مجموع القواعد التي تنظم اللاوعي؛ فحينما نقول إن هناك

منطقًا للاوعي فإنما نعني أنه يعمل وفقا للقواعد التي قام "فرويد" بوصفها.

- نحن إذن مجبرون اليوم على الإقرار بأن اللاوعي له منطق؛ ولكن ما الفائدة في ذلك؟

على سبيل المثال، عندما يمتلك الشخص كل ما يؤهله للنجاح كالموهبة، والجمال، والذكاء، ويظل يقع في الخطأ، ويدمر نفسه، ويكره الآخرين بينما يلقي بكل اللوم على عوامل خارجية، يمكن القول إن اللاوعي لديه قد ضحك عليه؛ وبالتالي فإن هذا اللاوعي، أي ما يقوم الشخص بكبته، هو المسئول الأساسي لما يحدث له؛ إنه نواياه السيئة، ومصدر تهوره. من الأفضل أن يدرك هذا الشخص أن ما يؤرقه ينبع جزئيًا من داخله حتى وإن سبق أن عانى من الاضطهاد أو كان ضحية لمضطهِد.

- ولكنك تقولين أيضًا أن هناك أناسًا لا يحتاجون إلى معرفة أن لديهم لاوعي؛ فماذا لديهم بدلا من ذلك؟

لقد سبق وقلت لك إن لديهم الأديان، والـ"شامان"، والعقاقير، والعلاجات الكيمائية، وتصنيفات الطب النفسي، والمعتقدات، والأرواح التي تنظم المؤامرات، والخلايا العصبية للمخ، والعقل الباطن، وما فوق الوعي.

ومما لا شك فيه أن اسم "فرويد" أصبح اليوم حاضرًا في الثقافة العالمية؛ وعمومًا ما كان مقدرًا أي يكون له أعداء لولا نجاح أفكاره، وما كان لأحد أن يناقش مسألة اللاوعي بهذا القدر إلا لو كان هناك تأثير لما قال.

- *ما معنى ما تقولين؟*

معناه أن "فرويد" هو الذي أطلق تسمية اللاوعي.

الفصل السادس

هل هناك حياة داخل اللاوعي؟

- نعلم الآن ان "فرويد" اطلق تسمية اللاوعي؛ وان اللاوعي جزء مجهول من فكرنا، وانه يعبر عن نفسه من خلال الأحلام ويقوم بخيانة يقظتنا وتحفزنا. وعلى الرغم من ان المخ هو الذي يأوي اللاوعي، فلا نجده في خلاياه؛ كما أصبحنا نعلم ان من نطلق عليهم فاقدي العقل يعبرون عما يدور في اللاوعي لديهم، وإننا حينما نكبت رغبة أو فعلًا، يعود باستمرار هذا المكبوت ليضايقنا. ولكن هل هناك حياة في اللاوعي قد تكون أشبه بالحياة على كوكب آخر غير كوكبنا؟

بكل تأكيد، ولكنها بالأحرى حياة غير واعية، إنها حياة الـ"هو"؛ حياة موازية تتعايش مع الحياة الواعية عند نفس الشخص.

هناك نساء يدعون أن لهم حيوات مختلفة يمكن لكل واحدة منها

أن تسيطر على الأخرى بالتناوب؛ فيمكن لامرأة أن تؤكد مثلا أنها بالليل أميرة هندية وبالنهار فارسة قادمة من سهول منغوليا؛ ثم تتحول في الأسبوع التالي إلى سيدة من العصور الوسطى سجينة في قصر ويهددها التنين؛ ثم بعد ذلك تصبح ملكة أفريقية.

ونرى امرأة أخرى حاملا لكنها غير مدركة أنها تحمل طفلا؛ وعند الولادة تشعر كأنها تحررت من شيء كان يضايقها، فتضع الطفل في كيس للقمامة وتخفيه داخل الثلاجة.

أولئك النساء يعيشن حياة واعية طبيعية تمامًا؛ فهن يذهبن كل صباح إلى العمل، ولا يلاحظ أحد ممن حولهن وجود تلك الحيوات المتوازية التي هي في الواقع مليئة بالهذيان.

- *هل هذا الأمر ينطبق دائمًا على النساء؟*

لا، فهناك رجال أيضًا لهم حيوات متعددة؛ فبعض النساء والرجال مقتنعون أنه سبق لهم أن عاشوا حياة أخرى؛ فكان بعضهم أسودًا أو أباطرة، والبعض الآخر غزلان أو آلهة. أحيانًا يقوم الناس باستنطاق أرواح الموتى؛ وهو ما يسمى بتحضير الأرواح. أنت لا تدرك هذا، ولكن قد يكون من حولك ناس يجتمعون ليلا حول طاولة يقومون بتدويرها انتظارًا للتواصل مع الموتى. كما أن هناك ناسًا يسمعون الأصوات أو يقابلون الأشباح في الشوارع؛ يقال أن هؤلاء يعانون من داء الهلوسة؛ فلم يعد وعيهم يسيطر على اللاوعي؛ ومع

ذلك لا يتم إدراك هذا الجنان مباشرة وبطريقة تلقائية.

- هل يمكن لأحد العلماء أن تكون له حياة موازية؟ هل يمكن أن يهذي؟

نعم، وقد كان "كورت جودل" مثالا لذلك؛ وهو أكبر علماء البرمجيات في القرن الماضي، ومؤلف المعادلة الشهيرة حول عدم الاكتمال،حيث يبرهن على أن أي نظام بديهي لا يمكن أن يكون متجانسًا وكاملًا في الوقت ذاته؛ فإن كان النظام متجانسًا، فإنه عاجز عن التدليل على تجانس البديهيات داخل نظام واحد. على غرار "أينشتاين" و"دارون"، قام هذا العالم بتغيير مفهومنا للعالم رأسًا على عقب؛ ومع ذلك، كان يؤمن "جودل" أن هناك عوالم خيالية متعايشة جنبًا إلى جنب مع العالم البشري! ولذلك، حاول أن يقدم أساسًا نظريًا لوجود الشياطين، والملائكة وللكائنات الموجودة خارج الأرض والقادمة من الفضاء الخارجي؛ فكان يعرّف الأسرة على أنها ذرّة يشكل الرجل نواتها وتمثل المرأة الإلكترون الشيطاني لها. ووفقا لفكرة أن الأنظمة الكونية في نظام دائري، قام يومًا باستئجار عدة حجرات في إحدى فنادق باريس حتى يسكنها بالتوازي في زمن ذي بعدين.

- هل لدى الأطفال لاوعي؟

نعم، ولكنه لاوعي ضعيف، يتشكل تدريجيًا مع تعلم اللغة

والكلمة؛ "نينون" التي تبلغ من العمر ثماني سنوات لا تعرف ما هو اللاوعي، ولكن أختها الأكبر "زوي" قادرة على تحديده بطريقة جيدة، كما هو الحال أيضًا بالنسبة لـ"لوسي"؛ وهذا معناه أنهن مدركات أن هناك شيئًا مجهولًا داخلهن.

- *هل يمكن للاوعي أن يتحدث وحده خارج نطاق الوعي؟*

ليس بالضبط؛ ولكنه يستطيع أن يغمر إجمالي الجزء الواعي للشخص حيث إنه يمتلك منطقه الخاص؛ لقد ألف الشاعران "أندريه بريتون" و"فيليب سوبو" في عام 1920 فنًا جديدًا سمياه السريالية أي ما هو وراء الواقعية أو أعلاها؛ فكان الأمر يتعلق لديهما بتحرير اللاوعي والحلم من أي شكل من أشكال سيطرة العقل. واعتبرت الحركة السريالية أن الإبداع الأدبي أو التشكيلي لا بد أن يصبحا الترجمة الحرفية للأفكار التي يحملها العقل الباطن: فالتفاحة تصور على هيئة مربع، وحبة البرتقال تصبح خضراء اللون، وماكينة الخياطة تتنزه جنبًا إلى جنب مع الشاحنة؛ ويمكن هكذا وضع صور أو أشياء فوق بعضها البعض بطريقة غير مألوفة؛ فمثلا نجد حمارًا فوق آلة البيانو، أو رجالا برأس عصافير، أو أجزاء من حائط تحصدها الرياح، أو عضوًا جنسيًا مكان الوجه، أو نوافذ مفتوحة على ظهر شخص ينظر إلى نفسه في مرآة لا تعكس سوى صورة ظهره.

- ولكن لم يكن هذا هذيان كما هو الحال بالنسبة للشخصيات ذات الوجوه المتعددة أو الحيوات الموازية؟

لا، بل كانت تجربة تسعى إلى الاستماع لمنطق اللاوعي.

- لقد قلت أيضًا أن اللاوعي يعبر عن نفسه بواسطة القصص والأساطير؛ فهو لا يقتصر إذن على ملكيتي الخاصة؟

بالفعل، فقد يكون اللاوعي جماعيًا أيضًا؛ وهو يحتوي على ثوابت الوضع البشري التي نسميها الأساطير، أي القصص التي تقوم بتفسير أصولنا ومنها: أصل العالم، وأصل الإنسان، وأصل الظواهر الطبيعية. وتتشكل الميثولوجيا من مجموع الأساطير التي تتضمن متغيرات متنوعة؛ فنحن نجد الأساطير نفسها في جميع الثقافات والأديان؛ وهي تحكي نفس القصص مثل: صراع الأبناء ضد الآباء، وضرورة الثورة على الاستبداد من أجل إرساء مجتمع أفضل، ومكانة الحياة الجنسية في العلاقات بين الرجال والنساء، وفكرة أن الحياة عبارة عن رحلة طويلة وأنه يجب المرور بالمحن قبل الحصول على الحكمة.

- رحلة طويلة؟

إنك تعلم قصة "أوليس"، ملك الـ"إيثاكيين"، الذي سافر ليحارب أهل طروادة، فمضى هذا الرجل الماكر عشرين عامًا مسافرًا حتى

يعــود لبلده ويلتقي بزوجته "بينيلوب" وابنه "تيليماك". وقد اضطر إلـــى اجتياز صعاب كثيرة خلال رحلته تلـــك؛ فذهب إلى الجحيم، وعاش مغامرات شـــهوانية؛ وأخيرًا، بعـــد إن اجتمع ثانية بزوجته الوفيـــة، قام بقتلـــه "تيليجونوس"، الابن الذي انجبه من الســـاحرة "سيرســـيه". وكما في قصة "أوديب" التي ســـبق وتحدثنا عنها، لا يعلم الابن أنه قتل والـــده، ولا يعرف الأخير أن قاتله هو ابنه؛ إنه القدر الذي يتحول إلى لاوعي؛ فهو يســـامح عندما يعرف الحقيقة. أمـــا "تيليماك"، الابـــن الآخر، فقد حل محـــل "أوليس" إلى جانب "بينيلـــوب" خلال غياب الأب؛ وقام بحمايـــة والدته ممن يتقدمون للـــزواج بها. "تيليماك" هو الآخر ضحية لقدره الذي أملاه المُنجم؛ فبعد موت "أوليس"، يتزوج "سيرســـيه" والدة "تيليجونوس" الذي ســـيصبح بدوره زوجًا لـ"بينيلوب"، وســـوف ينجم من هذا الزواج الأخير الطفل "إيطالوس" (الاســـم الذي ســـميت عليه "إيطاليا"). وهكذا تتزوج الأم ابن زوجها من امرأة أخرى، بينما يتزوج الابن والدة أخيه غير الشقيق.

- إذن، هل يمكن القول إن اللاوعي مليء بالأساطير، والرحلات، والحيوات المتوازية؟

نعم، وتعيدنا الأساطير إلى تاريخنا الفردي وإلى ما هو متاح وما هو ممنوع؛ فكل شخص منا يسعى إلى التخلص من طاغية، وله

رغبات تتعلق بالسلطة وارتكاب الجرائم؛ كلنا نريد السفر ونتطلع لحياة أفضل؛ وجميعنا يسعى إلى معرفة من أين جاء: من والده؟ وأمه؟ كيف أتى إلى هذا العالم؟ ما الذي حدث قبل مولده؟

- ما الأسطورة التي تتردد كثيرًا؟

إنها أسطورة الطفل المهجور الذي لا يعرف مَن أهله الحقيقْيون؛ ففـــي البحث عن هويتـــه، يجوب العالم، ويُصبـــح بطلًا، ويُخلص مملكة من الطغيان، ويَضع نفسه في خدمة المضطهدين في مواجهة المستغلين. ولكن قد تنقلب الأسطورة إلى عكسها كما هو الحال في قصـــة "أوديب"؛ فالبطل غدا منبوذا بعـــد أن قتل والده دون دراية وارتكب فعل الزنى مع المحـــارم. وبصفة عامة، يدفع البطل ثمن أخطاء الأجيال السابقة. كما يمكن أن نجد رواية أخرى حيث يتحرر البطل من الجرائم التي ارتكبها أسلافه من خلال إعادة الحياة لسلطة مبنية على العدالة؛ أو أن يكون البطل من أصول بســـيطة ويتمكن من خـــلال التعلّم ان يصبح حكيمًا، أو علـــى العكس قد يكون من أصول إلهية وملكية ويقوم بخدمة المعدمين. ومن الســـيناريوهات الممكنة أن يكون البطل ابنًا غير شـــرعي أو غير محبوب قام والده بإبعاده، فيعود لينتقم من خلال الاستيلاء على السلطة ونشر الفزع والخوف في مملكته؛ وهو ما شـــاهدته بنفسك كثيرًا في المسلسلات التليفزيونية.

- ولكن كيف يلقى كل ذلك الضوء على التاريخ الشخصي؟

درس "أوتو رانك"، أحد تلامذة "فرويد"، منذ ما يقرب من مائة عام الأساطير المتعلقة بمولد الأبطال؛ فلاحظ أن "رومولوس"، و"موسى"، و"أوديب"، و"يسوع"، و"لوهنجرين" وآخرين كانوا لقطاء، مهجورين، أو موضوعين في سلال على وجه المياه بأيدي آباء ملكيين يسعون إلى حمايتهم من نبوءة ما. فبعد أن كان قدرهم الموت، تستضيفهم أسرة من مستوى اجتماعي أدنى؛ وعند البلوغ، يكتشفون هويتهم الحقيقية ويحصلون على حياة مختلفة.

لو قمنا بإسقاط ذلك على تاريخنا الفردي، تعني هذه الأسطورة أن الأطفال -سواء كانوا أولادًا أو فتيات- يميلون للنظر إلى أهاليهم بطريقة مثالية، ويتطلعون إلى التشبه بهم ثم إلى الانفصال عنهم، وأحيانًا إلى تخيل أهل جدد يكونون أقرب لرغباتهم؛ فجميع المتغيرات ممكنة هنا.

- على سبيل المثال؟

ها هنا قصة "إميل" الذي تم تبنيه عند ولادته، وهو الأمر الذي لم يكن يعلمه. عند بلوغه سن الخامسة بدأ ينتابه قلق شديد، ويقول إن من يربونه ليسوا بأهله، وإنه ولد في عش فوق شجرة كالعصفور، وأنه ينتظر أن تنبت له أجنحة. فيما بعد، بدأ في جمع جوازات السفر، وبطاقات الهوية، وصور لمناظر غريبة. وكان يؤكد أنه

لقب باسم ليس اسمه؛ فكما ترى، كان عقله الباطن يعلم شيئًا لا يدركه بطريقة واعية، وهو سر الأسرة. فكان قد سأله البعض عن أصوله، وهو ما آلمه كثيرًا؛ وهذا ما يفيد بأن اللاوعي لا يخطئ.

- تعتقدين إذن أنه يجب أن تقال الحقيقة للأطفال؟

نعـــم، يجب أن نجد الكلمات المناســـبة للتعبير عن هذه الحقيقة، حيث إن الأطفـــال ينتهون دائمًا إلى اكتشـــافها، كما هو الحال في الأساطير؛ فالحقيقة تسكن ذاكرتهم غير الواعية.

الفصل السابع

هل تمتلك الحيوانات لاوعي؟

- حينما احلم، ارى حيوانات؛ فهل هذا معناه ان اللاوعي مليء بالحيوانات؟

تلك الحيوانات التي تراها في أحلامك عبارة عن كائنات خيالية، اي وحوش تتكون على سبيل المثال من ذيل كلب، وجسد ماعز به اجنحة، ورأس آدمي، وانياب أسد، وأقدام فيل.

- ولكن لماذا نحلم بالحيوانات؟

لأن الحيوانات ظلت منذ الأبد رفيق الإنسان، سواء كانت متوحشة أو اليفة؛ ففي المجتمعات البدائية، يمكن أن نجد عبادة الحيوان كالإله أو الكائن الأسطوري الذي يشير إلى احد اسلاف العشيرة. لقد شاهدت بكل تأكيد تلك الرموز الأسطورية الهندية أو الإفريقية في المتاحف؛ وهي عبارة عن منحوتات رائعة. كما يمكن

للآلهة الذكور والإناث أن يكون لها وجه بشري، أو حيواني، أو الاثنان معًا؛ أما الديانات السماوية، فهي وحدها التي حرمت وجه الحيوان الذي يتم تأليهه ليصبح مكانه في جهنم فقط. فالشيطان على سبيل المثال، ومهما كانت تسميته، هو حيوان دائمًا؛ إنه الملاك المضمحل الذي يجسد الشر.

- ألسنا من سلالة القردة؟

بالطبع، نحن جميعًا من نفس الأسرة، كما ننتمي جزئيًا إلى مملكة الحيوان حيث إننا من الثدييات، أي الكائنات التي تغذي أطفالها باللبن؛ ولكن هذا لا يعني أن الإنسان قرد، أو قطة، أو فار، أو كلب.

- ولكنك قلت إن البعض مقتنع أنه شيء آخر غير نفسه؛ وفي هذا السياق لدي صديقة مقتنعة أنها من فرط حبها للقطط ستصبح هي نفسها قطة في حياة أخرى.

هذا الأمر لا يتعلق فقط بالهذيان أو باللعب؛ فهناك بعض الأديان التي تؤمن بالتناسخ، أي بفكرة هجرة الروح من جسد إلى آخر، بما فيه إلى جسد الحيوان؛ وفي هذه الحالة، هم يحرّمون أكل الحيوانات.

- لو كانت الحيوانات تسكن عقلنا الباطن، فهل معنى هذا أن الحيوانات أيضا تحلم بالبشر؟

لا يمكن أن نعرف ذلك لأن الحيوانات لا تتحدث عن أحلامها.

- ولكن، كيف نعرف أنها تحلم؟

نعرف ذلك لأنها تطلق بعض الصرخات أثناء نومها؛ والإنسان وحده هو الذي يعلم أن الحيوان يحلم.

- لو كانت الحيوانات تحلم، فهل معنى هذا أن لها عقلًا باطنًا؟

لفترة طويلة تم اعتبار الحيوانات على إنها أشياء، على غرار العبيد والمجاذيب؛ وكان يقال إنهم غير واعين لأنهم يمتثلون لقوى إجرامية تقوم بترويضهم، أو وضعهم في أقفاص، أو حتى تجويعهم حتى يتعلموا قتل البشر؛ فعلى غرار المجانين، تم إغلاق الحيوانات في معارض الوحوش ثم في حدائق الحيوان حيث تتم زيارتهم.

- إذن افتقاد الوعي كان يعني أنك مجنون أو حيوان؟

نعم، بطريقة أو بأخرى؛ ففي كل الأحوال، كانت تعتبر الحيوانات كائنات بلا وعي، محرومة من الفكر والإدراك؛ وهو السبب في تشبيه الأشخاص غير الطبيعيين على مدى قرون بالحيوانات.

- الأشخاص غير الطبيعيين؟

نعم، الأقزام، والمحدبين، والتوأم الملتصقين، والألبينوس (يسمونهم عندنا بـ"عدو الشمس")، وكل من له عاهة جسدية، وحتى الأطفال المتوحشين الذين عاشوا طوال عمرهم في الغابات

بسـبب هجر أهلهم ولم يتعلموا الكلام قـط. كانوا يعرضون أولئك في الماضي في السيرك، أو يسلمونهم للعلماء والأطباء كي يقوموا بملاحظتهم. ولكن، تم التعامل بالطريقة نفسها مع الشعوب البدائية مـن الهنود والأفريقيين وقت الفتوحات الاسـتعمارية. وظل هناك تساؤل لفترة طويلة عما إذا كان لديهم روح ووعي.

- ولكنك قلت إن كون الإنسان يمتلك اللاوعي أو العقل الباطن يختلف عن افتقاد الوعي.

هذا صحيح، ولذلك لا نقول اليوم إن المجنون أو الحيوان غير واعين؛ نحن نعلم أن الحيوانات تتألم، ولها مشاعر، وحتى إن كانوا لا يمتلكون أي تصور حول الموت فلهم أحاسيس حينما يحتضر أحد المقربين منهم. لا يمكن أن نجزم أن لديهم عقلًا باطنًا مثلنا حيث إنهم لا يمتلكون الوعي، أو التفكير، أو اللغة التي يعبرون بها. غير أن الحيوانات - خاصة الثدييات ومن هم من نفس سلالة الإنسان - لديهم عقل باطني معرفي، بمعنى لاوعي قادر على أن يحفر في خلايا المخ ما يدور حولهم.

- إذن، الفرق بين الإنسان والحيوان هو أن الإنسان يعبر عن عقله الباطن من خلال اللغة، بينما لا يعبر الحيوان عن نفسه ولكنه يسجل أحاسيس.

بهذا المعنى يمكن القول إن هناك عقلًا باطنًا عند الحيوان ولكنه

لا يمت بصلة للعقل الباطن عند الإنسان.

- ولكنني قرأت أن علماء جادين يؤكدون أنه لا يوجد فرق بين مخ القردة ومخنا، وأنه يمكن حتى تعليم القرد أن يكون إنسانا.

بكل تأكيد يمكن تربية القردة على التشبه بالبشر، وكذلك تربية الإنسان على محاكاة القرود؛ كما يوجد علماء يعتقدون أن المخ البشري عبارة عن آلة ذات خلايا تستكفي بنفسها لتفكر أو تنتج أعمالا فنية. ويؤكد البعض أنه قادر على بناء آلة تقوم بتسجيل وترجمة الأحلام من خلال دراسة الطريقة التي تتوهج بها الخلايا في المخ. وهناك أيضًا أطباء نفسيون مقتنعون بانعدام وجود فواصل بين الأجناس، وأن الإنسان والحيوانات الذين ينتمون إلى نفس السلالة يتشابهون لدرجة أنهم يستطيعون التزاوج فيما بينهم. كذلك يظن عديد من العلماء أن للإنسان وللقرد عقلًا باطنًا مماثلًا، وهم يحلمون باليوم الذي سيتمكنون فيه من جعل القردة تنطق الكلام ليكتشفوا محتوى تفكيرهم في الخلايا العصبية لمخهم.

- ولكن هناك بشر محرومون من النطق ولكنهم يفكرون؟

بطبيعة الحال، فهذا الأمر مرتبط بجميع المرضى، أو الذين يعانون من تشوهات جسدية أو مخية أو عصبية أو جينية. إنهم يفقدون خاصية النطق، ولكنهم لا يشبهون لذلك الحيوانات التي لم تمتلك قط تلك الخاصية.

- *إذن، كيف يمكن تعريف العقل الباطن للحيوان؟*

قد يكون بالأحرى تعبيرًا عن موقف طبيعي أو غريزة.

- *ما معنى الغريزة؟*

الغريزة عبارة عن سلوك حدسي وموروث، ينبع من الطبيعة؛ إنها ناتجة عن آلية فسيولوجية (أي وظائفية)؛ على سبيل المثال، المشي (التنقل أو التحرك)، الخوف، الإنجاب، الاحتياج للغذاء (التغذية)، السمع، الشم، التذوق، تعبيرات الوجه والعيون، العدوانية، التجمع من أجل الحماية من الخطر.

- *ألا توجد غرائز عند البشر؟*

الواقع أن خلافًا للحيوانات، ينقسم وجدان البشر بين الطبيعة والثقافة؛ فهم يتحدثون، ويخترعون الأساطير، ويفكرون، ولديهم رغبات وليس فقط احتياجات. كثيرًا ما تتم الإشارة إلى الغريزة بطريقة حاطة (منتقصة) عند البشر حينما يراد التلميح إلى بقايا الميول الحيوانية لديهم. أما حينما نتحدث عن البشر فنحن نشير إلى الحافز، أي إلى قوة غير واعية أو دفعة نفسية وجسدية في الوقت نفسه موقعها في مكان ما بين الجسم والعقل.

- *هل هذه فكرة أخرى لدى "فرويد"؟*

نعم، ولكنْ هناك آخرون قبله كانوا قد فكروا بهذه الطريقة،

بالـــذات من أجل التمييز بين الإنســـان والحيوان؛ وقد قام "فرويد" بوصف الحوافز على غرار وصفه لمناطق العقل الباطن؛ فهو يميز بيــن حافز الحياة (الحب، الإنجاب، الرغبـــة) وحافز الموت الذي يدفعنا إلى تدمير الآخرين وتدمير أنفســـنا، أي الجريمة، والحرب والانتحار. إذن الحوافز غير واعية ولكننا نعلم أنها موجودة.

- لماذا يقال على موقف إنساني ما أنه حيواني؟ فنحن لا ننعت الحيوانات بأنهم بشر قذرون، فلماذا نستعمل تعبير "حيوان قذر"؟

ربما تعلم أن هناك فيلسوفًا فرنسيًا اتهم "فرويد" بَأنه ألف بالتوازي مع علم النفس "علم نفس القرود" وهو ما لم يكن ظريفًا من طرفه لا تجاه الإنسان ولا تجاه القرد. وفي السياقنفسه، يصف العنصريون السود بالقردة؛ إلا أن الأزمنة قد تغيرت؛ وما يتم أخذه على "فرويد" اليوم هو أنه لم يؤلف علم نفس للقرود يكون صالحًا بالنسبة للإنسان. في الماضي، كانت توصف أي مقاربة للحياة الجنسية للبشر على أنها "حيوانية"، واليوم أصبح العكس صحيحًا. فالمتخيل الآن أن القردة لديهم موهبة أكبر من الإنسان في ممارسة الجنس، وأنه ينبغي تقليدهم.

- ماذا يجب أن نفعل مع الحيوانات؟

في الواقع لا ينبغي اســـتغلال الحيوانات ولا التقليل من شـــأن الإنســـان، أو مقارنته بالحيوان، أو إســـاءة معاملة البعض لتثمين

البعض الآخر؛ إننا نتعايش مع الحيوانات، ونقتسم معهم عديدًا من الصفات؛ ولكنّ هناك حدودًا لا يجب تخطيها فيما بين مملكة الحيوان ومملكة الإنسان؛ أي الحاجز الموجود بين الأجناس المختلفة. ولذلك تعتبر ممارسة الجنس مع الحيوانات نوعًا من الإساءة؛ فالحيوان لا يمتلك إرادة حرة، وهو غير قادر على اختيار شريكه.

- بما أن هناك استمرارية ما بين عالم الحيوان وعالم البشر، ارجو ان تقولي لي ما هو مشترك بين العالمين؟

يعد الارتباط، والافتقاد والفراق من الأمور المشتركة بينهما؛ فكما هو الحال بالنسبة إلينا، يحتاج الحيوان عند مولده لتلامس جسدي مع أمه (أو من ينوب عنها)؛ وإلا حدث خلل في تطوره؛ فالحيوانات تتألم هي الأخرى من فقدان مثل ذلك التواصل؛ ولذلك، حينما يختفي عنصر الارتباط الأول، يشعرون - على غرارنا - بالهجر، فيبحثون عن بديل آخر وسط المجموعة التي ينتمون إليها؛ وكثيرًا ما شاهدت هذه الظاهرة في التلفاز من خلال أفلام وثائقية تتناول القرود والأفيال. وكما هو الأمر بالنسبة للإنسان، يضطر الحيوان إلى الانفصال عمن يمده بالغذاء، وهو ما يسمى بالفطام.

- منذ أيام، قدمتي لي كتابًا أحببته كثيرًا اسمه "سجناء حديقة الحيوان" لمؤلفته "فيرا حجي" التي كانت تعمل حارسة في حديقة حيوانات موسكو عام 1930؛ وهي تحكي فيه قصصًا رهيبة حول

حيوانات محبوسة يتم تعرضها لإساءات متعددة؛ وقد ذكرني حديثنا الآن بهذا الكتاب.

في هذا الكتاب، تصف "فيرا" الحيوانات في مواجهتهم لعالم البشر، منها الغضب الذي ينتاب النمر الملكي الذي يرفض تناول طعامه في حضور الحراس؛ وكذلك حكاية الدب الذي مات كمدًا بعد أن قتل رفيقة تم فرضها عليه. كما تحكي لك قصة أنثى الفيل الشابة التي قامت بدعك قطعة خبز قدمها لها أحد الزوار ثم ألقت في وجهه شفرة مخبأة بحرص داخل خرطومها. كان غرض الزائر معرفة مدى إدراك الحيوان بوجود هذا السلاح القاتل، فتلقى نصيبه جيدًا!

- ولكن، كيف فهم الحيوان أن هذا الزائر ينصب له فخًا؟

هي لم تستوعب ذلك، ولكنها شعرت به بغريزتها؛ فالحيوانات المحبوسة ليست كالحيوانات الطليقة؛ لقد أصبحت الأولى معتادة على مشاهدة أعداد غفيرة من الزوار الفضوليين والذين يمارسون أفعالا عدوانية بحكم اطمئنانهم أنهم لن يتعرضوا للهجوم كما هو الأمر في الغابة. لو كان هؤلاء الزوار قد التقوا بتلك الحيوانات القادرة على القتل في الطبيعة لشعروا بالذعر؛ ولكن، حينما يقابلونهم في الأقفاص المغلقة، فإنما ينتقمون منهم من خلال إذلالهم ونصب الفخاخ لهم. وبالتالي، تتأقلم الحيوانات مع هذا الخطر الجديد لدرجة أنها تستطيع أحيانًا التغلب عليه.

- يبدو من كلامك أن الإنسان أكثر قسوة من الحيوان؛ ولكنني شاهدت في التلفاز عديدًا من الأفلام الوثائقية حول الحيوانات المتوحشة، والأمر بدا مرعبًا، فهم يتآكلون فيما بينهم، والأقوى فيهم يفترس بشراسة من هم أضعف منه.

بالفعل، ولكن ذلك لا يمت بصلة للإنسان؛ فالحيوانات تلبي نداء الطبيعة؛ ولا يمثل القتل أي شكل من أشكال الاستمتاع بالنسبة إليهم. أما البشر، فهم وحدهم الذين يرتكبون الجرائم، وينظمون المذابح، أو يخترعون صنوفًا من التعذيب لإيلام أشباههم. الإنسان فقط هو الذي يقوم بإذلال الحيوان بتلوين شعره، وقطع أقدامه أو قصقصة أجنحته، أو وضع النظارات على أنفه للسخرية منه، أو تربيته على القتل. فالإنسان وحده قادر على أبشع الضلال والانحراف.

- ماذا تعني بالانحراف؟

الانحراف معناه التحويل، أو استبدال الخير بالشر، أو حب تدمير الذات أو الآخرين، أو التعامل كجلاد. أما الحيوانات، فهي ليست منحرفة، لأنها لا تدمر شيئًا من أجل التدمير؛ فهي كائنات لا تحمل ازدواجية أو ذاتية، ولا "أنا عليا"، أو لغة، أو عقلًا باطنًا بالمعنى الإنساني؛ إنها موجودة، وتعيش، وتموت، وتتكاثر، وتتألم.

- ولكن هل يمكن فعلا ترويض الحيوانات لتتحول إلى قتلة؟

هذا صحيح، فأنت تعلم أن النازيين فكروا في استبدال الحراس في معسكرات الإبادة بالكلاب، كما أرغموا تلك الكائنات على مراقبة المحبوسين؛ إلا أن تلك المحاولات لم تثمر بأي نتيجة؛ فحتى حينما تمت تربيتها على التهام المسجونين، لم تصل الكلاب إلى درجة الوحشية التي اتسم بها مربوهم. فالـ"حيوان القميء" هو الإنسان وليس الحيوان.

- الحيوانات تتآكل فيما بينها بينما نحن نأكل الحيوانات؛ فهل هذا انحراف؟

الإنســـان طبيعيًا من آكلي اللحوم، وبالتالي فأكل الحيوانات أمر طبيعي بالنســـبة إليه؛ ولكن نظرًا لإدراكنا أن القتل فعل وحشـــي، نشـــعر بالحساســـية تجاه تألم الحيوانات. فالأمر القاســـي هو قتل الحيوانات دون سبب، أو تعذيبهم، أو تحويلهم إلى لحم للأكل بينما ما زالوا أحياء في المعامل الصناعية الضخمة لتربية المواشي على سبيل المثال.

- ولكن الإنسان لا يقتصر على كونه مدمرًا؟

نظرا لأن البشر قادرون على ارتكاب جميع الجرائم الممكنة، فهم قادرون أيضًا على الاتيان بأكثر الأفعال رقيًا: الموت من أجل الحرية، والحب بشغف، ومقاومة الظلم، والتطلع إلى مجتمع أكثر عدلا، وكتابة وتأليف الكتب، واختراع القوانين التي تعاقبهم على

جرائمهم؛ وهو ما ينتمي أيضًا إلى اللاوعي.

- ماذا تعنين بهذا؟

نفهـــم من ذلك أن عقلنا الباطن مليء بكل ما هو أســوأ وكل ما هو أســمى، وأننا نحمل ازدواجية، وأنه من أجل الحد مما يحفزنا على التدمير لا بد من رعاية الفن، والثقافة، والحضارة، والقوانين، وإمكانـــات العيش مع الآخرين في المجتمـــع. وبهذا المعنى، فعلى الإنســـان حماية الحيوان لأن البشـــر وحدهم هم الذين تمكنوا من الســـيطرة على الطبيعة من خلال اكتســـابهم للثقافة؛ كما أن البشر وحدهم يعلمون بذلك الجانب الغامض الذي يحمله عقلهم الباطن.

الفصل الثامن

الركن الغامض للعقل الباطن

- كثيرًا ما يبدو اللاوعي مخيفًا، فهل ينبغي ان نخشاه؟

لا، إلا أن معظم الناس يخافون منه لأنه عبارة عن شيء لا يستطيعون التحكم فيه بحكم التقارب ما بين فقدان العقل واللاوعي؛ فنحن نخشى اللاوعي لأن لدينا انطباعًا أنه يتحكم فينا رغم إرادتنا؛ نتطلع إلى استكشافه وهو يخوننا في الوقت نفسه ويصنع لنا المقالب؛ فهو يجعلنا نقول أشياء لا نريد أن نقولها، وهو بذلك مصدر للقلق. كما أنه مليء بالرغبات غير القابلة للإفصاح، وبالمحفزات الإجرامية، وبكل هذه الأمور التي يود الناس القيام بها ولكنهم لا يفعلون مثل توجيه السب لمن يعتدي علينا، أو توجيه صفعة لشخص نعتبره غبيًا، أو التبول على عتبة باب جار مكروه.

- ولكنني لم أتطلع قط إلى القيام بمثل هذه الأفعال!

ربما أنت لأنك حظيت بتربية جيدة، وعقلك الباطن لا يتسبب لك في قلق؛ ولكنني متأكدة أنك شعرت أحيانًا بمحفزات شريرة قمت بكبتها.

- هذا صحيح، وهو ما يذكرني بكتاب ألماني قديم به بعض الصور كنت قد قمت بإهدائه لي في طفولتي وكان من بين مقتنيات والدتك واسمه (DerStruwwelpeter) أي "ببير ذو الشعر الهائش".

أنت محق؛ فهذا الكتاب عبارة عن مجموعة من الحكايات الصغيرة التي ألفها طبيب وشاعر ألماني - اسمه "هنريش هوفمان" - في القرن التاسع عشر ولقى نجاحًا واسعًا. قام الرسام "كافانا" بترجمته إلى الفرنسية بعنوان "ذو الشعر القذر"؛ وكافانا هذا هو أحد مؤسسي جريدة "شارلي إبدو". في هذا الكتاب، يحكي "هوفمان" لطفله البالغ من العمر ثلاث سنوات قصصًا لأطفال أشقياء يتجلون في أفعال غير عاقلة. فهؤلاء الأطفال يعذبون الحيوانات، ويتسمون بالعنصرية والعجرفة، ويرفضون الأكل، وينخفض وزنهم على مرمى البصر، ويلعبون بالكبريت، ويتسببون في الحرائق، ويغرقون لأنهم لا ينظرون أبدًا تحت أقدامهم في المكان الذي يسيرون فيه. أما الشخصية الرئيسية، وهو "ببير" ذو الشعر الكثيف الهائش، فهو يرفض تهذيب شعره سواء بالتسريح أو القص؛ ويترك أظافره تطول على مدى أسابيع إلى درجة أن تصبح يداه أشبه بالمخالب؛

ويتحول إلى إنسان قميء وتعيس. وفي النهاية، يقع هؤلاء الأطفال ضحية لسلوكهم الخاص وتحدث لهم أمور مرعبة؛ فيموتون من فرط الانصياع للتدمير الذاتي، وعدم كبت محفزاتهم الآتية من عقلهم الباطن؛ أو أنهم يخضعون لعقاب فظيع، فيأتي ترزي في يوم لقطع أصابع طفل كان يمص إصبعه الكبير (الإبهام).

- يبين الكتاب أيضًا أنه لا توجد فائدة من معاقبة هؤلاء الأطفال بالعقاب البدني.

هذا صحيح لأن قسوة العقاب لا تقل قسوة عما يوجهه الإنسان لنفسه؛ ففي نهاية الأمر، يقلد هؤلاء الأطفال آباءهم الذين يعاملونهم كأشياء ويعجزون عن تربيتهم؛ فالتربية السيئة هي التي تؤدي إلى أسوأ النتائج.

- اليوم يعطون أدوية لمثل هؤلاء الأطفال، فما رأيك في ذلك؟

هذا لا يفيد سوى في إخفاء المشكلة الحقيقية؛ في معظم الأحيان تكون هذه الأدوية فعالة وتؤثر على المخ؛ ولكنها غير قادرة على التحكم في السلطة المدمرة للعقل الباطن.

- هل يمكن اعتبار اللاوعي مبررًا لتلك الأفعال؟

بالقطع لا، فلا يمكن أن نتحجج بالعقل الباطن للتحلل من الوعي والتقليل من مسئولية كل إنسان.

- ولكن، لو كان العقل الباطن ذا طبيعة إجرامية، ما مسئولية ذلك الذي يرتكب الجرائم بينما تسيطر عليه المحفزات؟

لقد طرح قانون العقوبات الفرنسي هذا التساؤل منذ مائتي عام (1810) حينما قرر الأطباء النفسيون والحقوقيون التمييز ما بين المجرمين المجانين والمجرمين الواعين؛ ووصلوا إلى أنه حينما يرتكب إنسان جريمة في حالة جنان - أي أن يكون مريضًا نفسيًا - فلن يتم اعتباره مسئولًا عن أفعاله وإنما سيودع في مصحة نفسية؛ وهو المبدأ المطبق في أغلب النظم الديمقراطية.

- نعم، ولكن ما الفرق الجوهري بين المجرم المجنون والمجرم؟ أليس لدى الاثنين عقل باطن؟

المجرم المجنون يسمع أصواتًا، ويشعر بالتهديد من قبل أعداء متخيلين، وبالتالي يؤمن بأنه في حالة الدفاع عن النفس؛ فهو يعتقد على سبيل المثال أن الشخص الذي سيقتله من مصاصي دماء البشر وأنه يسعى إلى التهامه. في معظم الأحيان تقوم هذه العينة من المجرمين المجانين بقتل شخص واحد مشهور، كالملك، أو نجم، أو رئيس دولة؛ أي السلطة التي تجسد في عقله الباطن من يقوم باضطهاده.

- وماذا عن الإرهابيين الذين قتلوا أصدقاءك عام 2015 في "شارلي إبدو"، كيف تصنفينهم؟

إنني أصنفهم في صفوف المجرمين المتطرفين الذين يدافعون عن نظريات تحمل هلوسات إجرامية هم على وعي بها؛ إنهم ليسوا مجانين حتى وإن كانوا يبدون كذلك؛ فهم لا يرتبطون بالمرض النفسي، وهم مسئولون تمامًا عن أفعالهم.

- لقد أحضرت لي كتاب "في شرح أوشويتز لابنتي" من تأليف "آنيت فيفيوركا"؛ وهي ترى أنه من الأمور الغامضة أن تتحول أحد أكثر البلدان الأوروبية تمدينا - وهي ألمانيا - إلى ما آلت إليه فيما بين عامي 1933 و1945، أي عكس ما كانت عليه. هل يمكن اعتبار أن النازية هي اللاوعي الجمعي لألمانيا؟

لن أذهب إلى هذا الحد؛ فالنازية ظاهرة فريدة في العالم؛ وهي تشير إلى كيفية انحراف دولة إلى الدرجة التي يصبح هدفها الأوحد هو إبادة ملايين الرجال والنساء والأطفال في غرف الغاز لمجرد أنهم يهود أو اعتبار أنهم ينتمون إلى "جنس أدنى" مثل: المرضى النفسيين، وذوي العاهات، والغجر، وأهل البلدان السلافية، والمثليين جنسيًا، إلخ. وكما تعلم، قامت محكمة "نورمبرج" بمحاكمة المسئولين عن هذه الإبادة الجماعية، وتم اعتبارهم مسئولين عن أفعالهم. وقد تساءل الأطباء النفسيون عن الحوافز غير الواعية التي دفعتهم إلى ارتكاب ذلك، أي عن كيفية تفسير تلك الجرائم؛ فما الذي كان قد حدث لـ"هتلر"، و"هنريش هيملر"، و"أدولف أيخمان"

أو "رودولف هيس" في طفولتهم ليصبحوا مثل هؤلاء المجرمين؟ هل كانوا ضحية لممارسات سيئة؟ وكيف تولدت كل هذه الكراهية بداخلهم؟ هناك مئات التفسيرات التي تم تقديمها لتفهم "سيكولوجية" هؤلاء الجلادين.

- وماذا بعد؟

قد أقول إن ما سمح بتلك المذبحة هو أن النازية - كمذهب وعقيدة - قد شجعت التعبير عن المحفزات الداخلية لإحداث الموت تحت جميع أشكاله وعلى جميع مستويات المجتمع. وهكذا، فإن الجانب المظلم للعقل الباطن قد تم تثمينه بدلا من كبته. فأصبحت الجريمة، والتعذيب، والاغتصاب، والتبليغ عن الآخر، وإرادة الإيذاء هي القيمة الجماعية التي اضطر الجميع للخضوع لها وإلا اعتبر منافيًا للقانون. وبالتالي، لم يتم العثور على شيء محدد في عقول المجرمين النازيين قادر على تفسير تلك الأفعال؛ فجميع هؤلاء الجلادين مختلفون عن بعضهم البعض ولكل واحد فيهم تاريخه الخاص؛ ولكن تجمعهم فكرة أن ليس من حق اليهود الوجود، وأنه يجب استبدالهم ببشرية توصف بأنها أنقى وأعلى عرقيًا.

- ولكن هل يمكن في إطار هذه القيمة، أن يصبح أي شخص نازيًا؟

ليس بالضرورة، فلكي يصبح الإنسان نازيًا حقيقيًا، لا يكفي

أن يكون معاديًا للسامية وأن يتبنى بطريقة واعية فكرة خطورة اليهود، وإنما ينبغي أن يشارك في جميع السبل الممكنة - سواء كانت مباشرة أو غير مباشرة- في إبادة اليهود؛ يجب أن توجد هناك رغبة في القضاء عليهم جسمانيًا وتدمير أي أثر من آثار ثقافتهم، أو لغتهم، أو تاريخهم، أو ذاكرتهم، إلخ. أعلم أنك قرأت كتاب "قائمة شندلر"؛ فخلال الحرب العالمية الثانية، كان "أوسكار شندلر" رجل أعمال ألماني في مجال الصناعة، ولد في مورافيا وانتسب للحزب النازي؛ وكان مرحبًا به في الأوساط الحاكمة، كما عمل في أجهزة الاستخبارات. ونظرًا لأنه من مدمني الميسر والخمر والنساء إلى جانب موهبة محدودة في النجاح المهني، كان يقوم باستمرار ودون أي تأنيب ضمير بتشغيل عمالة مكثفة يهودية رخيصة؛ ولكنه - بدلا من أن يغمض عينيه ويكتفي بالربح - اكتشف تدريجيًا بكل فزع ما يدور حوله، وبالأخص ما يتعلق بإبادة اليهود؛ حينئذٍ استعمل مصنعه لإنقاذ موظفيه؛ فلم يكن ممكنًا بالنسبة إليه أن يتحول إلى نازي حقيقي.

- لقد أشرت إلى المعاداة الواعية للسامية، ولكن هل من الممكن أن تكون هناك معاداة غير واعية للسامية؟

بكل تأكيد، خاصة أن الأقوال المعادية للسامية وذات الطبيعة العنصرية مُجرّمة اليوم بالقوانين على اعتبار أنها محفزة للكراهية

العنصرية. وحيث إنه لم يعد ممكنًا أن يكون أحد اليوم معاديًا للسامية بطريقة واضحة وصريحة، تتجلى معاداة السامية بطرق أخرى مثل زلة اللسان، والتلاعب بالكلمات؛ فالعقل الباطن يعبث بالمعاديين للسامية بحيث يرى الجميع تلك المعاداة ويسمعونها.

- على سبيل المثال؟

حينما يقول شخص إنه غير معادٍ للسامية لأن لديه أصدقاء يهودًا، أو أنه لا يكن أي ضغينة ضد اليهود على الرغم من أن لهم تأثيرًا ما، ومظهرًا معينًا، أو أنهم شغوفون بالحصول على الربح. وحتى عندما يقال إثر وقوع اعتداء على معبد يهودي أنه كان هناك "بعض الضحايا الفرنسيين الأبرياء".

- هل يكون الجانب المظلم للاوعي عند الجميع؟

نعم، بدرجات متفاوتة.

- هل يفسر اللاوعي بطريقة كاملة ما نحن عليه؟

لا إذ أن هناك محددات أخرى؛ فنحن نتاج لتاريخ، وبيئة طبيعية واجتماعية، وجسد ملموس، وليس فقط حياتنا النفسية؛ كما أننا نمتلك حرية تغيير أنفسنا.

- هل هناك طريقة لتجنب أن يصبح الجانب المظلم هو المسيطر كما في حالة النازية؟

هذا السؤال ممتاز؛ بعد كل هذه المآسي، حاول العالم تطوير علم جديد يمنع إعادة إنتاج البربرية؛ وقد سمعت عن هذا العلم دون أن تدري ما هو، إنه يسمى الـ"سيبرنتيقا" (أي علم الضبط)؛ وهو العلم الذي تولد منه العالم الذي نحيا فيه اليوم، عالم الحواسب الآلية، والشبكات والاتصال اللامحدود عبر الشبكة الإلكترونية. وقد ألف "نوربرت فيينر"- وهو امريكي ينتمي إلى أسرة يهودية من أصول بولندية - هذا العلم، وكان عالمًا في الرياضيات واللغويات؛ كما كان من أنصار السلام، واشتراكيًا ونباتيًا. سعى "فيينر" إلى مقاومة بربرية العصور الحديثة من خلال استبدال المؤسسات البشرية بآلة ضخمة تجعل الاتصالات شفافة، مقتنعًا بأن هذه الآلة ستكون المرادف للعقل الإنساني - أي ذكاء صناعي - ويمكنها العمل بطريقة محايدة، فتجنب الأحياء الصراعات، والمؤامرات، والحروب، والفقر، وانعدام المساواة. كان يحلم بأن يحل نظام متناغم من الاتصال محل الوعي، والروح، واللاوعي، والرغبات، والمحفزات والسلطات. ولذلك كان ينادي بأن الـ"سيبرنتيقا" تقع ما فوق العواطف والانفعالات والنظم العقائدية؛ فبفضل هذا العلم سيتمكن البشر من العيش في سلام فيما بينهم ومع الحيوانات..

- ولكن، ألم يفلح الأمر؟

لا، لأن الإنسان لا يمكن أن تحكمه آلة؛ ولكن ما نجح هو أنك

تسطيع اليوم أن تتواصل في دقيقة مع العالم أجمع، وأن تحصل في وقت محدود للغاية على معلومات لا نهائية؛ فقد تطورت المعلوماتية بفضل الـ"سيبيرنيتيقا".

- إننا نرى هذا في فيلم "حرب النجوم"؛ أعلم أنك تحبين كثيرًا هذا الفيلم؛ هل لأنه يتحدث عن اللاوعي؟

نعم أحبه لأن ما يظهره هو التوليفة المعاصرة، ليس فحسب لجميع الأبحاث حول المخ، والآلات، والمعلوماتية، والاتصال، وإنما أيضًا للأساطير الكبيرة التي يزخر بها العقل الباطن. هذا الفيلم شكل من أشكال القصة الملحمية لعالم اليوم؛ وهو يقدم من خلال أجيال متعددة، ومن داخل كون يتشكل من مجرات وحواسب متنوعة، ملحمة حربية يختلط فيها الآلهة بالرجال والحيوانات والمحاربين والإنسان الآلي؛ لكل جنس لغته الخاصة، ولكنه قابل أيضًا للتغير؛ فالإنسان الآلي الذي صنعه البشر هو على شاكلة هؤلاء البشر؛ البعض منه تم ترويضه للقتل، والبعض الآخر لأداء المهام السامية.

- وماذا عن الحيوانات؟

إنهم يحملون سمات جديدة وهم يتكلمون؛ أما الرجل الذي يجسد محاسن الأجداد من الخير، والحكمة، فهو بوتقة الذاكرة الكونية؛ إنه عبارة عن قزم لونه مائل للاخضرار، نصف إنسان

ونصف حيوان، وهو قبيح الشـــكل وحجمه ضئيل للغاية. إنه يعبّر بالألغاز مثل العرّاف الإغريقي، بقلب تسلسل الحروف في الكلمات واســـتبدال ترتيبها في الجمل. ويخترق العالم الذي تعيش فيه جميع هـــذه الأجناس الصـــراع الدائر بين قوى الشـــر - أي الإمبريالية، والبربرية، والاســـتبداد بجميع صوره - وقوى الخير المتجسدة في النور، والتقدم والديمقراطية.

- وماذا عن شخصية "دارك فادور"؟

إنه شخص يؤرقه الصراع بين الخير والشر؛ وقد أنجب توأمان مصيرهما تدميره؛ فقد كان في البداية محاربًا متميزًا لصالح التنوير والحضارة؛ ثم جذبه "الجانب المظلم للقوة" نتيجة لخيبة أمله في أداء أسياده، أي أنه انجذب للشر الذي يحمله كل شخص بداخله؛ فيتحول إذن إلى إنسان آلي مرتديًا السواد؛ وحتى يحدث هذا التحول لا بد من أن يحترق وجهه وجسده بأكملهما؛ وتحت لباسه الحربي، والقيادة البربرية لسيده الأقرب إلى النازيين والذي شوهته الرذائل، يفقد "دارك فادور" صفته الإنسانية.

- وماذا عن قصة هذا البطل الذي يقتل والده؟

نعم، ففي اللحظة التي كاد أن يهزمه ابنه خلال معركة مميتة ينقلب "دارك فادور" ليحول قوته الحربية ضد ذلك الذي أخضعه لسلطته؛ فيظهر من تحت قناع الإنسان الآلي ذلك الوجه البطولي

الذي كانه في يوم من الأيام؛ ولكن ساعة الموت، يظهر هذا الوجه الآدمي والأبدي على هيئة وحش تغطيه البثور.

- *وماذا يعني هذا؟*

هذا المشهد يشير إلينا إلى تاريخ العلاقة الكونية بين الإنسان واللاوعي؛ أي تاريخ الصراع بين النور والبربرية؛ وهي المعركة التي لن تتوقف أبدًا، وهي ملاصقة بنفس القدر لذاتية البشر وذاتية الشعوب.



المؤلفة فى سطور:

إليزابيت رودينسكو

مؤرخة ومؤلفة لعدة كتب كان لها وقع كبير، وبالأخص تاريخ التحليل النفسي في فرنسا، وجاك لاكان، وقاموس التحليل النفسي، وسيجموند فرويد في زمانه وزمننا (حائز على جائزة ديسمبر، 2014).

المترجمة فى سطور:

نولة درويش

كاتبة ومترجمة مصرية وناشطة فى مجال حقوق المرأة، ترجمت العديد الدراسات والمقالات من اللغة الفرنسية.



اللاوعي

("حرب النجوم"، و"تيتانيك"، وخيال القصص والأساطير، والأحلام، وسلوك الحيوانات) من خلال الانغماس في العالم المعنوي للمراهقين المعاصرين، ترسم لنا أفضل خبيرة فرنسية للتحليل النفسي وتاريخه المعالم الملموسة لحقيقة لا نراها ولكنها تحدد طريقة حياتنا.



